

الفصل الأول

المصنفات العلمية في مُشكلات الأحلام

سأقيم البرهان في الصفحات المقبلة على أن ثمت منهجاً سيكولوجياً يمكن به تفسير الأحلام وأننا إذا اصطنعنا هذا المنهج تكشف كل حلم فإذا هو بناء نفس ذومعنى يمكن الربط بينه وبين مشاغل اليقظة في موضع معلوم . وأحاول بعدُ أن أجلو العمليات التي يحدث عنها غرابة الحلم وخفاؤه وأن أخلص من هذه بنتيجة في طبيعة القوى النفسية التي يتولد الحلم من ائتلاف فعلها أو تضاده . فإذا بلغت هذا المدى كف مقالى ؛ لأننا نكون بموضع تسلم عنده مشكلة الحلم إلى مشكلات أعم يقتضى حلها الركون إلى مادة أخرى .

وأبتدئ بنظرة عامة فيما صنف المؤلفون الأسبقون ، وكذلك في حال مشكلات الأحلام اليوم في مجال المعرفة العلمية ؛ لأن العود إلى ذلك لن يسنح لى من بعدُ كثيراً ، حين أعرض للموضوع . فما تقدم الفهم العلمى للأحلام إلا تقدماً يقل عن القليل رغم جهد دام آلاف السنين ، وعلى هذا أجمع المؤلفون إجماعاً لا يبدو بعده محل للاستشهاد بهذا المؤلف أو ذاك . ففي المصنفات التي ذيلت كتابي بثبتها ملاحظات كثيرة حافزة وموفرة حرية بالاهتمام تتعلق بموضوعنا ، لكن القليل هو الذى يمس ماهية الحلم أو يجلو لغزاً من ألغازه ، وأقل منه بالطبع ما تضمه معرفة عامة المثقفين من غير المختصين .

أى تصور للحلم ساد بين الشعوب البدائية في مطلع الإنسانية وأى أثر ترى كان له في مجمل نظرة هذه الشعوب إلى العالم والنفس - ذلك موضوع خليق بالاهتمام إلى أبعد مدى ، حتى أننى لا أمتنع عن معالجته في هذا المعرض إلا كارهاً . فأحيل القارئ إلى مؤلفات سير ج . لابوك و ه . سبنسر و إ . ب . تايلور وغيرهم ، وإنما أضيف أننا لا نستطيع أن نكتنه هذه المشكلات والتعاليم إلا بعد أن نفرغ من المشكلة المطروحة على بساط بحثنا : « تفسير الحلم » .

إن التصور قبل التاريخي للحلم له صدى يتردد جلياً في تقويم شعوب العصور

الكلاسية للأحلام^(١) . فقد كان من المسلم به عندهم أن للأحلام علاقة بعالم الكائنات فوق الإنسانية التي كانوا يؤمنون بوجودها ، وأنها - أعنى الأحلام - تحمل كواشف من عند الآلهة والجن . وكان يدخل في اعتقادهم فوق ذلك أن الحلم يأتي الحالم لمقصد ذي خطر ، هو في القاعدة الكشف عن الغيب . بيد أن التنوع الحارق في محتوى الأحلام وأثرها في النفس جعل الانتهاء إلى نظرة موحدة عن الحلم شيئاً عسيراً ، وأجلاً إلى إعمال التفرقة بين الأحلام وتقسيمها طبقات من حيث قيمتها وإمكان الركون إليها . ولم يكن تقويم الحلم عند هذا الفيلسوف أو ذلك من قدامى الفلاسفة منقطع الصلة بالطبع برأيه في العرافة بوجد عام .

فإذا جاء أرسطو كان الحلم موضوع بحث سيكولوجي ، وذلك في الكتابين اللذين يعرض فيهما أرسطو للأحلام . فهو يحدنا أن الأحلام ليست مبعوثة من الآلهة ، ولا هي ذات طبيعة إلهية بل هي « جنية » ؛ لأن الطبيعة « جنية » وليست إلهية . ومعنى هذا أن الحلم ليس وليد كشف يفوق الطبيعة ، بل هو يتبع قوانين النفس الإنسانية - وإن يكن من الحق أن بين هذه والإلهي نسباً . وتعريف الحلم هو أنه النشاط النفسى للنائم من حيث هو نائم .

وكان أرسطو يعرف بعض خصائص الحياة الحاملة : كان يعرف - مثلاً - أن الحلم يجسم ما يعرض في خلال النوم من المنبهات ، فيقول : « يعتقد المرء أنه يجتاز ناراً ويلظى بها ، وما به غير هذا العضو أو ذلك قد سخن قليلاً . » وهو يستخلص من هذه الخاصة أن الحلم قد ينم للطبيب عن أول العلائم على تحول جعل يدب في الجسم ولم يلق التفاتاً في النهار^(٢) .

وأما قبل أرسطو فنعلم أن القدماء لم يكونوا يرون في الحلم نتاجاً يصدر عن النفس النائمة بل وحيماً من الجانب الإلهي . ولقد أخذ يتبين بينهم كلا التيارين المتقابلين اللذين سوف نراهما يتناهبان تقويم الحلم في كل عصر من العصور : فهم قد فرقوا بين أحلام صادقة ، ذات قيمة ، ترسل إلى النائم تحذيراً له أو تبصيراً بالمستقبل ، وأخرى لا غناء فيها ، ماكرة ، معدومة القيمة ، كان هدفها سوق الحالم إلى الضلال أو دفعه إلى الهلكة .

ويذكر جرويه (١٩٠٦ ، ٢ ، ٩٣٠) عن ماكروبيوس وأرتيميدوروس قسمة للأحلام

(١) أعتمد فيما يلي على كتاب بوكسنشوتس الجامع (١٨٦٨) .

(٢) يعرض الطبيب اليوناني هيپوقراط للعلاقة بين الحلم والمرض في فصل من مؤلفه الذائع .

شبيهة بهذه إذ يقول : « كانت الأحلام تقسم طبقتين : فأما الأولى فيقال : إنها قد تأثرت بال حاضر (أو الماضي) ولكنها خالية من الدلالة على المستقبل . وكانت تشمل المنامات ^(١) التي تصور فكرة ما أو ضدها - كالجوع أو إشباعه - تصويراً مباشراً ، ثم الخيالات ^(٢) التي تضخم الفكرة تضخيماً مغرماً في الخيال ، مثل الكابوس ^(٣) . وأما الطبقة الأخرى فكان يقال على العكس : إنها تحدد المستقبل . وكانت تشمل : (١) النبوءة المباشرة يسموها المرء في الحلم ^(٤) ، (٢) الرؤيا تسبق إلى حدث مستقبل ^(٥) ، (٣) الحلم الرمزي الذي يحتاج إلى تأويل ^(٦) . ولقد دامت هذه النظرية قروناً عديدة . »

وبهذا التقييم المتفاوت للأحلام ارتبطت مشكلة « تفسيرها » : فقد كان الناس يتوقعون من الأحلام بوجه عام نتائج ذات بال ، ولكن الأحلام لم تكن جميعها قريبة من الفهم للوهلة الأولى ، فإن استغلق أحدها لم يعرف أحد إذا كان الحلم لا يعلن مع ذلك أمراً خطيراً ، فكان هذا حافزاً على الاجتهاد لكي يستبدل بالمحتوى المستغلق للحلم محتوى آخر قريب من الفهم ، له - من ثم - دلالة . وكان أرتيميدوروس الأفسوسي يعد أعظم حجة في تفسير الأحلام في أواخر العصر القديم ، ولسنا نملك سوى القناعة بمؤلفه المستفيض عوضاً عما ضاع من المؤلفات الأخرى في باب ^(٧) .

وما من شك في أن نظرة القدماء قبل العلمية إلى الحلم كانت تتسق ومجمل نظرتهم إلى العالم بوجه عام أكمل اتساق ، وهي نظرة تسقط على العالم الخارجي - في صورة واقع - ما لا وقوع له إلا في باطن النفس . ثم إن نظرتهم إلى الحلم تحسب فوق ذلك حساباً لانطباع الرئيس الذي يتلقاه الذهن المستيقظ من ذكرى الحلم المتخلفة في الصباح ؛ ففي

[ἔνυπνια, insomnia] (١)

[φαντάσματα,] (٢)

[ephialtes] (٣)

[χρηματισμός, oraculum] (٤)

[ὄραμα, visio] (٥)

[ὄνειρος, somnium] (٦)

(٧) - لوقوف على ما صار إليه تفسير الأحلام في القرون الوسطى انظر : ديبجن ، ثم دراسات فورستر الوصفية ، ثم جتهارت . . . إلخ . وأما تفسير الحلم عند اليهود فيبحثه المولى وأمرام ولوفينجر ، وحديثاً جداً بحثه أيضاً لاور بجها راعي فيه وجهة النظر التحليلية . ويعرفنا بتفسير الحلم بين العرب دركسل وشفارتس والإرسالي تفينكجي ، ويعرفنا به بين اليابانيين ميورا وإيوايا ، وبين الصينيين زيكر ، وبين الهنود نجلين .

هذه الذكرى يحضر الحلم كأنه شيء غريب ، طراً من عالم آخر ، يباين سائر محتوى النفس . ونخطئ بعدُ حين نظن أن نظرية الأصل فوق الطبيعي للأحلام تعدم أنصاراً في أيامنا ؛ فإننا قد نغض الطرف عن الكتاب التقويين والمتصوفين ، فهؤلاء يحق لهم أن يتشبثوا بالمواقع القليلة المتبقية من المجال فوق الطبيعي الذي كان متسع النطاق يوماً ما دام نور العلم لا يغزوها ، ولكننا نلاقي بعد ذلك رجالاتنا ثاقبين لا ولع لهم بالغرائب يحاولون أن يتخذوا من هذا الامتناع على التحديد - وأعني به امتناع ظواهر الحلم على التعليل - سنداً يدعمون به إيمانهم الديني بوجود قوى روحية تفوق الإنسان وبتأثيرها (أنظر هافنر) . والقيمة الرفيعة التي تضيفها إلى الأحلام بعض المدارس الفلسفية ، مثل مدرسة شلنجر ، هي رجوع جلي يردد ما كان للأحلام من طبيعة إلهية غير منازعة في اعتقاد القدماء ، فأما المناقشات في قوة الحلم المتنبئة الكاشفة حجب الغيب فما انقطعت ؛ كل أولئك لأن المحاولات المبدولة من أجل الوصول إلى تعليل سيكولوجي لاتزال تقصر عن مكافأة المادة المتجمعة مهما كان عزوف أهل العلم عن مثل هذه المعتقدات .

وإنه لمن الصعب أن نكتب تاريخاً ما للبحث العلمي في مشكلات الحلم ؛ لأن هذا البحث مهما علت قيمته في بعض النقاط لا يبين عن تقدم محدد الاتجاه ، فما هناك أساس من النتائج المستيقنة يتابع الباحث اللاحق البناء عليه ، بل كلما جد باحث جدد علاج المشكلات ذاتها وبدأ كمن يبدأ من البداية . فلو أردتُ أن أترجم الترتيب الزمني للمؤلفين ، موجزاً آراءهم واحداً فواحداً في مشكلات الحلم ، ما وجدت مفراً من أن أترك كل أمل في أن أقدم صورة عامة مجملة لمعرفتنا الراهنة بهذا الموضوع . وعلى هذا رأيت أن أقسم الكلام على حسب الأبواب لا المؤلفين ، وكلما جئت إلى مشكلة أوردت ما أودعته المؤلفات من مادة تعين على حلها .

غير أني وقد تعذر على الإمام بكل ما كتب في هذا الموضوع لما هو عليه من فرط التبصر والاشتبك بغيره ، لا أرى مناصاً من أن أسأل القارئ القناعة ما دمت لا أغفل واقعة أساسية أو وجهة نظر ذات وزن .

لقد كان معظم الكتاب إلى عهد قريب يرون أنفسهم محمولين على معالجة النوم والحلم في معرض واحد ، وكانوا في العادة يعرضون فوق ذلك لحالات مماثلة تدخل في باب علم النفس المرضي ولظواهر لها سببها الحلم (مثل الهلاوس والرؤى وما شاكلها) . وعلى تقيض

ذلك يتجلى في أحدث المؤلفات عهداً إثر انتشار الاختصار على موضوع محدود النطاق ، وربما شغل الكاتب بمسألة مفردة من مجال الحياة الحاملة . وأود أن أرى في هذا التحول أمانة على الاقتناع بأن التنوير والاتفاق لا يأتيان في مثل هذه المسائل المظلمة إلا بمتابعة الأبحاث المفصلة . وما أقدم في هذه الصفحات إلا بحثاً مفصلاً من هذا القبيل ، بحثاً ذا طابع سيكولوجي بنوع خاص . ولم يتح لى أن أعالج مشكلة النوم إلا قليلاً ؛ فهذه مشكلة فيزيولوجية في جوهرها - وإن يكن من الحق أن من خصائص حالة النوم أنها تحدث تغييراً في الشروط التي يعمل جهازنا النفسى بمقتضاها . وعلى ذلك أغفل فيما يجي ذكر المؤلفات المتعلقة بموضوع النوم .

إن المسائل التي يثيرها البحث العلمى في ظواهر الحلم من حيث هي كذلك ، يمكن تبويبها أربعة أبواب لا تخلو من بعض التداخل فيما بينها :

أ

علاقة الحلم بحياة اليقظة

يقول الحكم الساذج للمرء في أول استيقاظه : إن الحلم - وإن يكن لا يصدر عن عالم آخر - قد حمله مع ذلك إلى عالم غير الذى يعهده . وعن هذا المعتقد يعرب الفيزيولوجى القديم بورداخ الذى ندين له بوصف دقيق نافذ لظواهر الأحلام في فقرة يكثر الاستشهاد بها (١٨٣٨ ، ٤٩٩) : « . . . إن حياة النهار بأعمالها ولذاتها ، بسرأها وضراًها ، لا تتكرر في الحلم على الإطلاق ، بل الأصدق أن الحلم إنما يهدف إلى تخليصنا من كل أولئك . فقد يملك نفوسنا موضوع ما أو يمزقنا ألم عميق أو تستغرق مشكلة كل طاقتنا العقلية ، ثم يأتينا الحلم بشيء مختلف النوع كل الاختلاف أو لا يلتقط من الواقع سوى عناصر متفرقة يدخلها في تراكيبه أو يذهب إلى مجرد التلون بلون مزاجنا والإعراب عن الواقع إعراباً رمزياً . » وبهذا المعنى يتحدثى . ه . فيخته (١٨٦٤ ، ١ ، ٥٤١) عن أحلام مكتملة ويصفها قائلاً : إنها إحدى المكرمات الخفية في طبيعة الروح المنظوية في نفسها على دوائها . ويعرب ل. شترومبل عن معنى مماثل في بحث له في طبيعة الأحلام ومنشأها ، اجتمعت الآراء بحق على تقديره تقديرأ رفيعاً ، فيقول (١٨٧٧ ، ١٦) : « من حلم ارتحل عن عالم الشعور المستيقظ . » ويقول كذلك (ص ١٧) : « في الأحلام تسمى ذكرانا عن المحتويات المنظمة

للشعور المستيقظ وعن مسلكه السوي كأنما لم يعد لها وجود . « وأيضاً (ص ١٩) : « إن النفس — وقد كادت تفقد كل ذاكرة — تنفصل في الحلم عن المحتوى المألوف لحياة اليقظة ومشاعلها . . . »

بيد أن الغالبية الغالبة من الكتاب قد نظروا إلى علاقة الحلم بحياة اليقظة نظرة مخالفة . مثال ذلك هافنر إذ يقول (١٨٨٧ ، ٢٤٥) : « وأول شيء هو أن الحلم يتابع حياة اليقظة ؛ فأحلامنا تتصل دائماً بالأفكار التي كانت تشغل الشعور قبيل وقوعها . وتكاد الملاحظة المدققة أن تكتشف باطراد خطأ يصل الحلم بنجرات اليوم السابق . » ويناقض فيجانت (١٨٩٣ ، ٦) قضية بورداخ التي أوردتها من قبل على التخصيص : « لأننا نلاحظ في أحيان كثيرة ، في القسط الأعظم من الأحلام على حسب الظاهر ، أن الحلم يعود بنا إلى مألوف الحياة بدل أن يخلصنا منه . » ويصوغ موري هذا الموقف في عبارة محوكة فيقول (١٨٧٨ ، ٥١) : « إننا نحلم بما رأيناه أو قلناه أو رغبتنا فيه أو صنعناه . » (١) بينما يفيض يسن في كتابه الذي ظهر في علم النفس سنة ١٨٥٥ بعض الإفاضة فيقول (ص ٥٣٠) : « إن محتوى الحلم تحدده دائماً — تحديداً يزيد أو ينقص — شخصية الحالم الفردية وسنه ونوعه وطبقته ومستوى تعلمه وأسلوبه المألوف في الحياة وما اشتملته حياته السابقة جميعها من التجارب والأحداث . »

وأقطع رأى في هذه المسألة هو رأى الفيلسوف ي . ج . ل . ماس (١٨٠٥) إذ يقول : « وتؤيد الخبرة ما نذهب إليه من أننا نحلم في معظم الأحيان بالأمور التي تتجه إليها أشد انفعالاتنا . ومن هذا نرى أن انفعالاتنا لا بد أن يكون لها تأثيرها في إحداث أحلامنا ؛ فيحلم الطموح بأكاليل الغار التي نالها (أو تخيل أنه نالها) أو بتلك التي لا يزال عليه أن ينالها ، بينما يحلم العاشق بمعقد أعذب آماله . . . وكل الرغبات الحسية وحركات النفور الغافية في القلوب مستطية — إذا حركها محرك — أن تثير حتماً ينبعث من الأفكار المرتبطة بها أو أن تجعل هذه الأفكار تتدخل في حلم دائر بالفعل . » — فقلا عن فينرشتاين (١٩١٢) .

ولم يكن القدماء على غير هذا الرأي فيما يتصل بتوقف محتوى الحلم على الحياة المستيقظة فيحدثنا رادشوك (ص ١٣٩) كيف كان اجزر كس يتأرجح قبل حملته على أرض

[“Nous rêvons de ce que nous avons vu, dit, désiré ou fait”]

الإغريق بين نصيحة عاقلة بالإقلاع عما اعتزم وحلم ملح يحضه عليه . وبينما هو على هذه الحال أدلى إليه مفسر متعقل من قدامى مفسرى الأحلام بين الفرس - وهو أرتابانوس - بقول سديد : إن صور الحلم لا تضم في معظم الأحيان سوى ما يفكر فيه المرء من قبل وهو مستيقظ .

وفي قصيدة لوكريس التعليمية « في الطبيعة »^(١) ترد الفقرة الآتية (الكتاب الرابع ، البيت ٩٦٢ وما بعده) :

« وأيا كان المسعى الذى يندب له المرء نفسه ويثابر عليه ، وأيا كانت الأمور التى طال اشتغالنا بها فى الزمن الماضى ، فهذه - وقد صارت النفس أشد حرصاً على لحاقها - هى أيضاً ما نخال فى الحلم لقاءه : من له قضية يذود عنها ويوازن بين الشرائع ، والقائد يقاتل ويجوز غمار المواقع . . . »^(٢)

ويقول شيشرون (« فى العرافة »^(٣) ، الكتاب الثانى [فقرة ٦٧]) فى معنى شبيه كل الشبه بالذى قاله مورى بعده بهذه القرون الطوال : « وعندئذ تتخلج فى النفس وتضطرب بنوع خاص بقايا تلك الأشياء التى فكرنا فيها أو صنعناها ونحن أيقاظ . »^(٤)

إن التناقض بين هاتين النظرتين فى علاقة الحلم بحياة اليقظة يبدو بالفعل شيئاً لا حل له . ومن ثم كان هنا مقام التذكير بكتاب هيلد برانت (١٨٧٥) الذى يعتقد أنه لا سبيل على الإطلاق إلى وصف خصائص الحلم إلا « بطائفة من القضايا المتقابلة ، يبدو التقابل بينها حاداً حتى التناقض » (ص ٨) . « وأول تقابل يقوم فى كمال انقطاع الحلم أو انزغاله

عن الحياة الواقعة من جهة ، واشتباك كل بالآخر اشتباكاً مستمراً وتوقفه عليه من جهة أخرى . فالحلم شيء مفصوم من الواقع الذى نعيشه فى حياة اليقظة فصماً تاماً ، حتى ليحس القول : إنه شيء موجود فى ذاته وجوداً أحكم إبطاه ، ضربت بينه وبين الحياة الواقعة هوة

[“De reum natura”]

(١)

[Et quo quisque fere studio devinctus adhaeret,
aut quibus in rebus multum sumus ante morati
atque in ea ratione fuit contenta magis mens,
in somnis eadem plerumque videmur obire;
causidici causas agere et componere leges,
induperatores pugnare ac proelia obire, ... etc. etc.]

(٢)

[“De Divinatione II.”]

(٣)

[“Maximque reliquiae earum rerum moventur in animis et agitantur, de quibus
vigilantes aut cogitavimus aut egimus.”]

(٤)

لا تعبر . إنه يحررنا من الواقع ويطنئ ذكرانا السوية عنه وينزلنا في عالم آخر وحياة مختلفة القصة كل الاختلاف ، لا شأن لها في جوهرها بقصة الحقيقة . . . » ويمضى هيلد برانت فيبين كيف أننا إذا حل النوم اختنى كيائنا كله « اختفاه في مصيدة لا يرى لها باب » . حينئذ قد يركب الحالم البحر إلى سانت هيلانه ليقدم لنا بليون الأسير هناك نخبة من أنبذة الموزل ، ويلقاه الإمبراطور السابق بأعظم الترحيب حتى أن المرء يكاد بأسف حين يستيقظ فإذا هذا الوهم الممتع يتبدد . ولكن دعنا نقارن بين الحلم والحقيقة : إن الحالم لم يكن في حياته تاجر أنبذة ولا رغب في ذلك قط ، وهو لم يركب البحر ولو مرة ، ولو فعل لكانت سانت هيلانه آخر مكان يختار الذهاب إليه ، ثم هو لا يكن لنا بليون حباً بل بغضاً وطنياً عارماً ، وفوق هذا كله لم يكن الحالم رأى الثور حين مات نابليون في جزيرته ؛ فكل رابطة شخصية به ضرب من المحال . وهكذا يبدو الحلم جسداً غريباً دس بين شطرين للحياة متوائمين متداولين على أكمل وجه .

ويمضى هيلد برانت قائلاً : « ومع هذا فما يبدو أنه الضد صادق كذلك وصحيح ؛ لأن أوثق الشائخ - مهما يكن من شيء - تسير فيما أعتقد جنباً إلى جنب مع هذا الانفصال وهذا الانزعال . بل إن لنا أن نذهب حتى القول بأن الحلم - أيا كان ما يعرض فيه - يستمد مادته من الواقع ومن الحياة الذهنية التي تدور حول هذا الواقع . . . ومهما أغرب الحلم فهو في الحقيقة لا يستطيع على الإطلاق التخلص من العالم الواقعي ، وهو دائماً في أسمى تراكيبه كما في أجلبها للضحك يستعير بالضرورة مادته الأساسية سواء مما عرض لأعيننا في عالم الحواس أو خطر بين أفكارنا ونحن أبقاظ ، أى - بعبارة أخرى - مما سبقت لنا به خبرة خارجية كانت أو باطنية . »

ب

مادة الحلم - الذاكرة في الحلم

هناك على الأقل حقيقة لا نزاع فيها ، تلك هي : أن المادة التي تكون محتوى الحلم إنما تستمد جميعها من الخبرة على نحو أو آخر ، أى أن الحلم إنما يستحضرها أو يتذكرها . غير أن من الخطأ أن نظن أن مثل هذا الارتباط بين محتوى الحلم والواقع يظهر للعيان من غير عناء على أثر المقارنة بينهما ، بل يلزمنا البحث عنه بحثاً دائماً ، وقد ينحى علينا زمنناً طويلاً في

طائفة بأسرها من الحالات . ويرجع السبب في ذلك إلى عدة من الخصائص التي تبديها ملكة الذاكرة في الحلم والتي استعصى تعليلها حتى الآن، وإن لم تخف على الملاحظة بوجه عام . وخلق بعناثنا أن ننعم النظر إلى هذه الخواص .

أول ما نرى هو أنه يتفق أن ترد في محتوى الحلم مادة لا يستطيع المرء مستيقظاً أن يرى فيها جزءاً من معرفته أو خبرته ؛ فهو يذكر ذكر اليقين أنه قد حلم بهذا الشيء أو ذلك ، ولكنه لا يذكر أنه قد خبره ولا متى خبره . ويظل المرء في ظلمة لا يدري من أي نبع استقى الحلم ، وفي هذا ما يغريه بأن ينسب إلى الحلم قدرة مستقلة على الإبداع ، إلى أن تجيء خبرة جديدة — بعد حقبة طويلة في كثير من الأحيان — فتعيد إليه ذكرى الخبرة السابقة التي ظن ضياعها ، كاشفة له بذلك عن منبع الحلم . وهكذا يسلم المرء ضرورة بأنه قد علم في الحلم أموراً كانت تخرج عن متناول ذاكرته المستيقظة ، وتدكرها (١) .

ويضرب دلبوف مثلاً على ذلك فريداً في قوته ، استمدته من أحلامه : ذلك أنه رأى في الحلم فناء منزله وقد كساه الثلج ورأى عظامتين صغيرتين تجمدتا نصف تجمد واندفنتا تحته . فسارع — وهو المحب للحيون — إلى التقاطهما وتدفتهما ، ثم أعادهما إلى ثقب صغير خصص لهما في الحائط ، وقدم لهما فوق ذلك بضعة أوراق من سرخس صغير كان ينمو على الحائط ؛ لِمَا كان يعلمه من فرط حبهما له . وكان يعرف في الحلم اسم النبات : أسبليوم روتا موراليس (٢) . واستمر الحلم ليعود بعد قليل من الاستطراد إلى العظائتين . وهنا رأى دلبوف لدهشه عظامتين أخريين وقد انكفأتا على أوراق السرخس . وحينئذ أجال البصر حوله ، فرأى عظاماً خامسة فسادسة تتجهان صوب الثقب الذي في الحائط ، وما لبث الطريق أن اكتسى كله بموكب من العظاما اتخذت ذات الوجهة . . . إلخ .

وكان دلبوف لا يعلم وهو مستيقظ سوى القليل من الأسماء اللاتينية للنبات ليس بينها « أسبليوم » . فكم كان عجبه حين تحقق من أن ثمت سرخساً يحمل هذا الاسم حقيقة ! وكان اسمه الصحيح : أسبليوم روتا موراريا (٣) — وهو الاسم الذي حرفه الحلم تحريفاً طفيفاً . وكان التفكير في اتفاق عارض يكاد يكون مستحيلاً بالطبع . ولكن من أين أتى

(١) — يقول فاشيد : إنه قد لوحظ في أحيان كثيرة أن المرء قد يتحدث في الحلم بلغة أجنبية مبدياً في ذلك طلاقة وسلامة يقصر عنهما وهو مستيقظ .

[Asplenium ruta muralis]

(٢)

[Asplenium ruta muraria]

(٣)

الحلم بذلك الاسم : « أسبليوم » ؟ هذا ما ظل لغزاً في عين دلبوف .
لقد وقع هذا الحلم في عام ١٨٦٢ . وبعد ذلك بستة عشر عاماً كان الفيلسوف يزور صديقاً فلمح لديه سجلاً صغيراً حوى أزهاراً مجففة من قبيل ما يباع إلى الأجانب في بعض أنحاء سويسرا على سبيل التذكرة . وهنا بثقت في خاطره إحدى الذكريات ، ففتح السجل ، فإذا هو يرى « أسبليوم » حلمه ويرى اسمه اللاتيني مدوناً في أسفله بخطه نفسه . عندئذ وضحت الرابطة : ففي عام ١٨٦٠ - أى قبل الحلم بعامين - زارت دلبوف أخت لهذا الصديق كانت إذ ذاك في رحلة عرسها ، وكانت تحمل معها هذا السجل عينه لكي تهديه إلى أخيها . وأخذ دلبوف على نفسه أن يدون بأسفل كل نبات مجفف اسمه اللاتيني بإملاء أحد المشتغلين بعلم النبات .

ويشاء حسن الاتفاق الذي جعل هذا المثال خليقاً بالرواية أن يمكن دلبوف من تأثر جزء آخر من محتوى هذا الحلم إلى أصله المفقود . ففي يوم من عام ١٨٧٧ عثر دلبوف على مجلد من صحيفة قديمة مصورة ، فرأى فيها موكب العظايا مصوراً جميعه مثلما تراهى له في الحلم عام ١٨٦٢ . وكان المجلد يحمل تاريخ عام ١٨٦١ ، وكان دلبوف يذكر أنه كان بين المشتركين في هذه الصحيفة منذ ظهورها .

أن يكون للأحلام سلطان على ذكريات لا تُنال في حياة اليقظة ظاهرة ملحوظة ، ذات خطورة نظرية حتى أننى لأود الإلحاح في التنبيه عليها بضرب مثال آخر من أمثلة الأحلام « الذكيرة » : يحدثنا موري كيف ظلت كلمة « موسيدان » تراود خاطره في أثناء النهار دون أن يعلم من أمرها شيئاً سوى أن ثمت مدينة من مدن فرنسا تحمل هذا الاسم . وفي ذات ليلة لاح لمورى في الحلم أنه يتحدث إلى شخص يقول له : إنه قد أتى من موسيدان . فلما سأله عن موقع هذه المدينة ، أجابته : موسيدان مدينة صغيرة في مقاطعة الدُرْدُنِي . فلما استيقظ موري لم يصدق هذه الإفادة التي تلقاها في الحلم ، ولكن القاموس الجغرافي أثبت له تمام صحتها . وفي هذا المثال يثبت أن الحلم أعلم ، إلا أن الكشف عن الأصل المنسى لهذا العلم لم يتيسر .

ويروى يسّن حادثة حلمية شبيهة بهذه غاية الشبه ترجع إلى عصر أكثر قدماً ، يقول (١٨٥٥ ، ٥٥١) : « ويدخل في هذه الطبقة كذلك حلم (يذكره هُنسجر ، ١٧٨٤ ، ٣٠٠) أتاه سكاليجر الكبير الذى نظم قصيدة في مديح أعلام فيرونا : فقد ظهر له في

الحلم رجل دعا نفسه بروجنولوس شاكياً إغفاله . ولم يكن في استطاعة سكاليجر أن يذكر أنه قد سمع بهذا الرجل قط ، ولكنه مع ذلك نظم فيه بضعة أبيات . ثم عرف ابنه بعد ذلك في فيرونا أن رجلا بهذا الاسم قد اشتهر فيها كناقد حقيقة . »

ويقص الماركى درفائى دى سان دنى (عن رواية لفاشيد ١٩١١ ، ٢٣٢) حنماً ذكيراً تميز بتلك الخاصة الفريدة ، وهى أن الحلم - وقد عجز عن أن يتعرف إحدى الذكريات في حلم أول - يعود فيعرفها في حلم لاحق ، يقول : « حلمت مرة بسيدة شابة ذات شعر ذهبي ، رأيها تتحدث إلى أختي وهى تريحها قطعة من النسيج المطرز . وكان وجهها يبدو مألوفاً في الحلم ، وفكرت في أنني قد رأيها مرات كثيرة من قبل . فلما استيقظت كان محياها لا يزال ماثلاً أمامي واضحاً غاية الوضوح ، ولكنني عجزت عجزاً تاماً عن معرفته . ثم عدت إلى النوم ، فعادت صورة الحلم . ولكنني في هذا الحلم الجديد سألت السيدة الشقراء : هل سعدت بلقائها من قبل في مكان ما ؟ فأجابتنى : يقيناً ، ألا تذكر شاطئ البحر في پورنيك ؟ وهنا استيقظت على الفور مرة ثانية ، وأمكنتني عندئذ أن أذكر ذكراً أكيداً كل ما ارتبط بهذا الوجه الحلمى الخلاب من التفاصيل . »

ويروى المؤلف نفسه (على ما يذكره كذلك فاشيد ، ص ٢٣٣) كيف سمع موسيقى من معارفه لحناً ظنه جم الطرافة في الحلم حتى عثر عليه بعد ذلك بسنوات في مجموعة قديمة من القطع الموسيقية ظل مع ذلك عاجزاً عن أن يذكر أنها قد وقعت بين يديه من قبل . هذا وقد نشر مايرز مجموعة بأسرها من أمثال هذه الأحلام الذكيرة في مرجع لم أجد لسوء الحظ سبيلاً إليه ^(١) . وإني أعتقد أنه ما من أحد اشتغل بالأحلام إلا سلم بأن دلالة الحلم على معارف وذكريات لا يعلم المستيقظ امتلاكه إياها ظاهرة مألوفاً إلى مدى كبير . وإنه ليتاح لى في خلال عملي التحليلي النفسى مع العصبيين - وهو ما سوف أجيء إلى الحديث عنه فيما بعد - يتاح لى أكثر من مرة في كل أسبوع أن أقيم لمرضاى الدليل من أحلامهم على أنهم يعرفون في الحقيقة نصوصاً مختارة وعبارات فاحشة ... إلخ . أجود المعرفة وأنهم يستخدمون معرفتهم هذه في أحلامهم وإن نسوها في يقظتهم . وسأقص هنا مثلاً آخر بريئاً على شدة ذاكرة الحلم ؛ لأن تأثر مصدر المعرفة التى لم يدن بلوغها إلا للحلم كان في هذا المثال من السهولة بمكان .

رأى أحد مرضاى فى خلال حلم طويل بعض الطول أنه يطلب كأساً من « الكونتوشوكا » فى أحد المقاهى . ثم بعد أن خبرنى بذلك سألتى ما هذا الشراب ؛ فهو لم يسمع به قط من قبل . ولم يعجزنى أن أجببه أن ذلك شراب بولندى من المستحيل أن يكون قد اخترع اسمه فى أثناء الحلم اختراعاً ؛ فقد كان ذلك الاسم مألوفاً لى منذ وقت طويل من طريق الإعلانات . وأبى المريض أن يصدقنى فى أول الأمر ، ولكنه بعد ذلك بأيام قلائل ، بعد أن أجاز لحلمه أن يصبح حقيقة واقعة ، لاحظ هذا الاسم على لافتة تقع عند ناصية طريق كان يمر به مرتين على الأقل فى كل يوم طوال بضعة شهور .

ولقد عرفت من أحلامى نفسى كيف يظل الكشف عن مصادر العناصر المتفرقة للحلم مرهوناً بالصدفة . مثال ذلك أننى ظلت سنوات قبل تحرير هذا الكتاب تلاحقنى صورة برج من أبراج الكنائس متواضع الهيئة فى الغاية ، دون أن أستطيع أن أذكر أنى رأيتة . ثم عرفته بعد ذلك فجأة أيقن المعرفة عند محطة صغيرة على الخط الحديدى الممتد بين سالزبورج وراينجهال . وكان ذلك فى النصف الثانى من العقد الأخير من القرن ، وكان أول عهدى بهذا الطريق فى عام ١٨٨٦ . وحدث فى سنوات تالية - وكان اشتغالى بدراسة الأحلام قد بلغ أشده - أن أخذت صورة تمثل مكاناً غريب الهيئة تلح على فى الحلم إلحاحاً مرهقاً : كنت أرى فى اتجاه معين بالنسبة إلى ، على يسارى ، فضاء معتمماً برزت فيه أشكال حجرية شائهة . وكان هناك شعاع من ذكرى يحدثنى - دون ميل منى إلى تصديقه - بأن ذلك مدخل كهف تحفظ فيه الجعة ، ولكننى ظلت عاجزاً عن أن ألقى الضوء على معنى هذه الصورة أو مأتاها . ثم اتفق عام ١٩٠٧^(١) أنى جئت إلى بادوا التى عجزت أسفاً عن أن أعود إلى زيارتها منذ عام ١٨٩٥ ؛ فما روت زيارتى الأولى لهذه المدينة الجامعية الجميلة غلتى ، فقد فاتنى أن أرى رسوم جيوتو الحائطية فى كنيسة « مادونا دل آرينا » ونكصت على عقبي وأنا فى منتصف الطريق إليها إذ قيل لى إن الكنيسة مغلقة فى ذلك اليوم . ففى زيارتى الثانية لها ، بعد أن انصرم اثنا عشر عاماً ، كنت عازماً على إدراك ما فاتنى ، فكان التوجه إلى المادونا دل آرينا أول ما صنعت . وإنى لنى طريق إليها إذا أنا أكتشف على يسارى ، عند البقعة التى أرجح أنى استدرت فيها على عقبي ، هذا المكان الذى طالما رأيتة فى الحلم بأشكاله الحجرية : لقد كان فى الحقيقة مدخل مطعم فى الهواء الطلق .

(١) [هذه الفقرة قد أضيفت سنة ١٩٠٩ .]

ومن المصادر التي يستمد منها الحلم مادة يعيدها - وهي مادة يظل بعضها عاطلا في أثناء النشاط الفكري المستيقظ ، فلا يتذكر ولا يستخدم - حياة الطفولة . ولن أستشهد إلا بقليل من المؤلفين الذين لحظوا ذلك وألحوا فيه .

يقول هيلد برانت (١٨٢٥ ، ٢٣) : « سبق أن قلنا صراحة : إن الحلم يستحضر أحياناً إلى النفس - بقدرة عجيبة على الإعادة - حوادث من سنواتنا الأولى بعدت صلتنا بها كل البعد إن لم يكن عنى عليها النسيان . »

ويقول شرومبل (١٨٧٧ ، ٤٠) : « وتزيد المسألة بعد ذلك ظهوراً إذا لاحظنا كيف يبعث الحلم - إن جاز التعبير - من تحت أعماق الرذوم وأشدّها كثافة ، تلك التي هالها لاحق الزمن على أوائل خبراتنا في الطفولة ، صوراً متفرقة لمحال وأشياء وأناس ظلت سليمة لم تمس ، مبقية على نضارتها الأولى . ولا يقتصر ذلك على انطباعات اجتذبت حين وقوعها شعوراً بالغ الشدة أو اصطحبت بأهمية نفسية عالية ، تعود الآن في الحلم في صورة ذكريات صادقة قد يسر لها الشعور المستيقظ . بل الأصدق هو أن ذاكرة الحلم تشتمل أغوارها كذلك على صور لأشخاص وأشياء ومحال وأحداث ترجع إلى الزمن الأول ، إما أنها لم تنل من الشعور إلا حظاً ضئيلاً أو لم تنل من الأهمية حظاً ما أوفقدت كليهما منذ زمن طويل ، حتى لتبدو في الحلم ولعين المستيقظ على السواء غريبة كل الغرابة ، مجهولة كل الجهل ، إلى أن يكشف عن أصلها المبكر . »

ويقول فولكلت (١٨٧٥ ، ١١٩) : « ومن الأمور الملحوظة بنوع خاص كيف تتسرب ذكريات الطفولة والصبي إلى الحلم ؛ فالحلم لا يفتأ يذكرنا بأشياء كففنا منذ زمن طويل عن التفكير فيها أو كفت منذ زمن طويل عن أن تكون لها أهمية في نفوسنا . »

ولقد أدت سيطرة الحلم على مادة طفولية يفلت جزؤها الأعظم - كما نعلم - من شباك ذاكرتنا الشعورية إلى نشوء أحلام ذكيرة حرية بالاهتمام ، أذكرمة أخرى قليلا من أمثلتها .

يروى موري (١٨٧٨ ، ٩٢) أنه اعتاد وهو طفل أن يذهب في أحيان كثيرة من مسقط رأسه « مو » إلى بلدة « تريبور » المجاورة ، حيث كان والده يشرف على بناء جسر . وفي ذات ليلة حمله الحلم إلى « تريبور » ورأى موري نفسه يلعب في شارع القرية من جديد . ثم اقترب منه رجل يرتدى نوعاً من اللحل الرسمية ، فسأله موري اسمه ، فأجاب الرجل قائلاً : إنه يدعى س . وإنه حارس الجسر . واستيقظ موري يساوره الشك في صدق هذه

الذكرى ، فسأل خادماً عجوزاً عرفته طفلاً : هل تذكر رجلاً بهذا الاسم ؟ فكان جوابها :
« نعم ، إنه كان حارس الجسر الذى بناه والدك . »

ويضرب مورى مثالا آخر على يقين الذكرى الطفلية المنبعثة فى الحلم ، لقي من حسن التأييد ما لقيه سابقه . والحالم فى هذا المثال رجل يدعى ف . ولد ونشأ فى « مونبريزون » ، ثم بعد هجرة دامت خمسة وعشرين عاماً عقد العزم على أن يزور الوطن وأصدقاء أسرته القدامى الذين لم يرههم منذ ذلك الحين . وفى ليلة الرحيل رأى الرجل فى الحلم أنه قد بلغ مقصده وأنه التى على مقربة من « مونبريزون » برجل لم يعرفه من مرآه ، ولكن الرجل أخبره أنه السيد ت . وأنه صديق من أصدقاء والده . وكان الحالم يعلم أنه قد عرف فى طفولته سيداً بهذا الاسم ولكنه لم يعد يذكر شكله فى يقظته . ثم بعد ذلك بأيام قلائل بلغ الرجل وطنه حقيقة ، فعرف المكان الذى ظن فى الحلم أنه يجمله ، وفيه التقى بسيد عرف فيه على الفور السيد ت . — إلا أن الشخص الحقيقى كان يزيد فى السن كثيراً عما تراءى عليه فى صورة الحلم .

وأستطيع فى هذا الصدد أن أذكر حلاماً من أحلامى حلت فيه علاقة محل الانطباع المراد تذكره : فقد رأيت فى الحلم شخصاً عرفت فى أثناء الحلم نفسه أنه طبيب البلد الذى ولدت فيه ، ولم تكن ملامحه فى الحلم جلية ، بل اختلطت بلامح معلم لى بالمدرسة الثانوية ما زلت ألتقى به حتى اليوم . فلما استيقظت لم أستطع أن أجد رابطاً ما بين هذين الشخصين ولكنى حين سألت والدتى عن الطبيب الذى كان يعالجنى فى هاته السنين الأولى من طفولتى علمت أنه كان أعور — وكذلك كان المدرس الذى حجب شخصه فى الحلم شخص الطبيب . وكان ذلك بعد أن انقضى ثمانية وثلاثون عاماً منذ رأيت الطبيب للمرة الأخيرة ، ولم أكن — فيما أعلم — قد فكرت فيه على الإطلاق ، مع أن بذقنى أثراً من جرح كان كفيلاً أن يذكرنى بما لقيت من عنايته ^(١) .

وكانما أراد بعض المؤلفين أن يخففوا هذا الغلو فيما يعزى إلى خبرات الطفولة من شأن فى الحياة الحاملة ؛ فهم يؤكدون أن فى الأحلام عناصر ترجع إلى ما يسبق الحلم بأيام قريبة

(١) [أضيف الجزء الأخير من دمه الجملة ابتداء من : « مع أن ... الخ » فى طبعة سنة ١٩٠٩ وظل يظهر فى جميع الطبعات التالية حتى سنة ١٩٢٢ ، ثم حذف بعد ذلك . ولكننا نجد فى صفحة ٢٨٩ إشارة إلى هذا الطبيب عينه لا تفهم بغير هذا الجزء . فأما الحدث الذى كان سبباً فى الجرح المشار إليه ، فأغلب الظن أنه هو الموصوف فى صفحة ٥٥٠

معدودة . ويذهب روبرت (١٨٨٦ ، ٤٦) إلى حد القول بأن الأحلام السوية لا تشغل إلا بانطباعات الأيام القليلة الأخيرة . ومن الحق أننا سوف نرى كيف شيد روبرت نظرية في الحلم تستلزم إبراز الانطباعات الحديثة إلى مكان الصدارة وإخفاء القديمة استلزماً أمراً ، ومع هذا فالظاهرة التي تحدث عنها روبرت ظاهرة صحيحة - كما يسعني توكيده استناداً إلى مباحثي . وفي رأى مؤلف أمريكى ، هو نلسون ، أن الانطباعات التي تستخدم في الحلم ترجع في معظم الحالات إلى اليوم السابق على اليوم الذي يحيىء الحلم في أعقابه أو إلى السابق على هذا السابق ، وكأن انطباعات اليوم الذي يسبق الحلم مباشرة لا تبلغ من الوهن أو من البعد مبلغاً كافياً .

ولقد دهش مؤلفون متعددون ، ممن يهتمهم ألا يضعوا الصلة العميقة بين الحلم وحياة اليقظة موضع الشك ، لما رأوه من أن الانطباعات التي تسحتوذ على أفكارنا المستيقظة استحواداً شديداً لا تعرض في الحلم إلا بعد أن ينحيا التفكير النهاري جانباً بعض التنحية : مثال ذلك أننا لا نحلم بعزير فقدناه والحزن لا يزال يملكنا (دولاج) . غير أن باحثة من أحدث من لاحظوا هذا الموضوع ، هي الآنسة هالام ، قد جمعت الشواهد على العكس ، مؤكدة بذلك حق كل منا في أن تكون له فرديته السيكلوجية في هذا المجال .

وأما الخاصة الثالثة بين خصائص الذاكرة في الحلم - وهي أعجب الخصائص وأشدّها استغلافاً على الفهم - فتتجلى في اختيار المادة المستذكرة ؛ فما يعد جديراً بالتذكر هنا ليس أخطر الأمور دون غيره ، كما هو الحال في حياة اليقظة ، بل أتفها كذلك وأقلها ظهوراً . وهنا أترك الكلمة لأولئك الكتاب الذين أعربوا عن عجبهم أقوى الإعراب .

يقول هيلد برانت (١٨٧٥ ، ١١) : « والعجيب هو أن الحلم لا يستمد عناصره في العادة من أحداث النهار الجلية المثيرة ولا من مشاغله القوية القاهرة ، بل من تفاصيل عارضة أو - إن جاز التعبير - من قصاصات معدومة القيمة تخلفت من الخبرات الحديثة أو من الماضي السحيق . فقد يحرك مصاب عائلتي حزناً عميقاً في نفوسنا ويترد عنا الكرى جزءاً طويلاً من الليل ثم ننام ونحن في أسره فإذا هو يمحى من ذاكرتنا حتى يعود إلينا في عنف يشيع الاضطراب في نفوسنا مع أول لحظات اليقظة . هذا بينما يتسع الحلم لزائدة في جهة شخص غريب صادفناه اتفاقاً وما فكرنا قط في أمره بعد أن مررنا به . »

ويقول شرومبل (١٨٧٧ ، ٣٩) : « هناك حالات نكتشف فيها بتحليل الحلم أن

بعض عناصره مستمد حقيقة من خبرات اليوم السابق على الحلم أو اليوم الذى قبله ، ولكنها كانت خبرات خالية من كل قيمة أو وزن حتى أنها آلت إلى النسيان على أثر وقوعها . ومن قبيل هذه الخبرات عبارات يسمعا المرء عفواً من الآخرين أو أفعال يلحظها منهم بدون قصد أو لمحات خاطفة من الناس أو الأشياء أو نبذ متفرقة مما قرأ ، إلخ .

ويقول هافلوك إليس (١٨٩٩ ، ٧٢٧) : « إن الانفعالات العميقة التى نعرفها فى حياة اليقظة والمسائل والمشكلات التى نصرف فيها الجزء الرئيس من طاقتنا العقلية الإرادية ليست فى العادة هى التى تمثل لشعور الحالم على الفور . بل الذى ينفجر فى أحلامنا غالباً — بقدر ما يتعلق الأمر بالماضى القريب — هو انطباعات حياة النهار التافهة العارضة « المنسية » . فهذه الأوجه من نشاطنا النفسى التى كانت أشد ما يكون استيقاظاً هى التى تنام أعمق النوم . » (١)

وأما بينتس (١٨٧٨ ، ٤٤ — ٤٥) فىرى فى هذه الخاصة على التحديد من خصائص الذاكرة فى الحلم مدعاة إلى الإعراب صراحة عن قلة رضائه بتعليلات الحلم التى أيدها هو نفسه من قبل ، فيقول : « والحلم الطبيعى يثير أسئلة مماثلة : لماذا لا نحلم دائماً بالانطباعات الذكورية المتخلفة من اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة بل نعوص فى كثير من الأحيان دون ما سبب ظاهر فى ماضٍ سحيق كاد ينطفىء ؟ لماذا ينطبع الشعور فى الحلم على هذا النحو الشائع بالصورة الذكورية المجردة من الشأن بينما يظل خلايا المخ فى المناطق التى تحمل أشد آثار الخبرة حساسية خرساء خامدة فى معظمها ، إلا أن يكون قد حركها محرك إلى نشاط مستجد قبيل الحلم فى خلال حياة اليقظة ؟ »

ومن السهل أن نرى كيف كان من المحتم أن يؤدي هذا الإيثار العجيب الذى تبديه ذاكرة الحلم تجاه ما هو تافه فى خبرتنا اليومية وكان يمر — من ثم — غير ملحوظ إلى إغفال توقف الحلم على حياة اليقظة عامة وعلى الأقل إلى جعل إثبات هذا التوقف أمراً عسيراً فى أية حالة جزئية . فهكذا تجد الآنسة هوايتون كالكيتر فى دراستها الإحصائية لأحلامها وأحلام معاوينها جزءاً قدره أحد عشر فى المائة من مجموع الحالات لا تظهر فيه رابطة ما بحياة

[“The profound emotions of waking life, the questions and problems on which (١) we spread our chief voluntary mental energy, are not those which usually present themselves at once to dream consciousness. It is, so far as the immediate past is concerned, mostly the trifling, the incidental, the ‘forgotten’ impressions of daily life which reappear in our dreams. The psychic activities that are awake most intensely are those that sleep most profoundly.”]

اليقظة . ولا جدال في أن هيلد برانت كان محققاً حين أكد أن في مقدورنا أن نبين منشأ كل صورة من صور الحلم لو أننا خصصنا لاستقصاء مصدرها وقتاً وجهداً كافيين . وهو يدعو مثل هذا العمل « مهمة مفرطة المشقة والجحود ؛ فهي لن تنتهي بنا في معظم الأحيان إلا إلى التفتيت في زوايا الذاكرة السحيقة عن كل صنوف الحديث النفسى المجرد من القيمة وإلى جذب كل صنوف اللحظات الماضية التي لم نعد نكترت لها أقل أكتراث من نسيان لعلها قد قبرت فيه إثر وقوعها . » ولست أجد إلا أن أعرب عن أسفى لأن هذا المؤلف الحديد البصر قد ترك نفسه يجيد عن طريق لاحت له لا تبشر بخير كثير في مبدئها ، ولو اتبعها لقاتته قدماً إلى صميم تعليل الحلم .

ولا شك في أن للطريقة التي تسلك عليها الذاكرة في الأحلام أهمية قصوى بالنسبة إلى كل نظرية عن الذاكرة عموماً ؛ فهذه الطريقة تعلمنا أن « ما نمتلكه مرة امتلاكاً ذهنياً لا يضيع كله أبداً » (شولتس ، ١٨٩٣ ، ٥٩) ، أو كما قال دلبوف : « كل انطباع مهما كان قليل الشأن يترك أثراً لا يحول ، قابلاً من غير نهاية لأن يعود إلى الظهور » ^(١) - وهي نتيجة يدفعنا إليها كذلك عدد وفير من الظواهر المرضية للحياة النفسية . فلا ننسى بعد ذلك هذه القدرة الخارقة التي تبديها الذاكرة في الحلم ؛ لكى نزيد شعوراً بالتناقض الذى تضمه نظريات - سوف يجيء أوان ذكرها - تحاول أن تعلق فساد الأحلام وانعدام ترابطها بالنسيان الجزئى لما نعلمه في خلال النهار .

ولقد يدور بخلدنا أن ظاهرة الحلم يمكن أن ترد في جملتها إلى ظاهرة التذكر ، فلا يكون الحلم ظوى مظهر ينم عن نشاط استحضارى يعمل حتى في خلال الليل ، غير مستهدف غاية تخرج عن ذاته . ولقد يتفق ذلك وما يرويه البعض مثل بيلتس من وجود علاقة ثابتة تمكن البرهنة عليها بين وقت وقوع الحلم ومحتواه : فستحضر الحلم أقدم الانطباعات في أثناء النوم العميق بينما يستحضر أحدثها قرب الصباح . ولكن طريقة الحلم في معالجة المادة المراد تذكرها تبطل مقدماً مثل هذه المزاعم . فشر ووبل محق حين يقول : إن الأحلام لا تكرر خبراتنا . نعم ، إن الحلم قد يخطو خطوة في هذا الاتجاه ، لكن الخطوة الثانية لا تجيء ، أو تجيء في صورة محورة ، أو يحل محلها شىء مغاير كل المغايرة .

(٣) ["Que toute impression même la plus insignifiante, laisse une trace inaltérable, indéfiniment susceptible de reparaître au jour."]

فاستحضار الحلم استحضار مجتزئ ، وهذه على التأكيد قاعدة لها من سعة الاطراد ما يسمح بترتيب النتائج النظرية عليها . بيد أن للقاعدة شواذ يكرر فيها الحلم خبرة ما في استيفاء لا يقل عما تستطيعه ذاكرتنا المستيقظة . فدلوف يحكى عن أحد زملائه كيف استعاد في أحد أحلامه حادثة عربية كان قد سلم منها بما يشبه الأعجوبة فلم يترك شيئاً من تفاصيلها . وتذكر الأنسة كالكيتر حلمين لم يخرج محتوى كل منهما عن أن يكون تكراراً يعيد حدثاً من اليوم السابق بخدافيره . وسيتاح لى أيضاً أن أذكر مثالا صادفته على خبرة من الطفولة عاودت الظهور في الحلم من غير تحريف^(١) [ص ٢١٠ وأيضاً ٢١٨] .

ج

منبهات الحلم ومصادره

يقول مثل عامى : « تأتى الأحلام من المعدة » ، وهذا المثل يعين على فهم المراد بقولنا : منبهات الحلم ومصادره . فن وراء هذين التصورين تكمن نظرية فحواها أن الحلم ينتج عن إزعاج يصيب النوم ؛ فما كنا لنحلم لولا مزعج طراً في أثناء النوم ، والحلم استجابة بإزاء هذا المزعج .

إن المناقشة في أمر العلل المثيرة للحلم تشغل محلاً كبيراً من كتابات المؤلفين . ومن الجلى أن قيام هذه المشكلة لم يكن ممكناً إلا بعد أن أصبح الحلم موضوع بحث بيولوجى ؛ فما كان القدماء - وهم الذين اعتقدوا أن الأحلام توحىها الآلهة - بحاجة إلى التماس منبهات للأحلام ، فالحلم يصدر عن إرادة قوى إلهية أو جنية ، ومحتواه منشؤه علم هذه الإرادة أو غايتها . وأما العلم فلم يلبث أن واجه هذا السؤال : هل المنبه إلى الحلم واحد أم كثير الأنواع ؟ ومن هنا كان النظر فيما إذا كان بيان علة الحلم يدخل في مجال علم النفس أو يدخل بالأحرى في علم وظائف الأعضاء . والذي يبدو هو أن معظم الثقاة قد اتفقوا

(١) تدعوى خبرقى اللاحقة إلى أن أضيف أنه لا يندر على الإطلاق أن تتكرر في الحلم أفعال من اليوم السابق بريشة خالية من الخطر ، كحزم الحقائق وإعداد الطعام في المطبخ . . . إلخ . غير أن الذى يلح عليه الحالم نفسه في مثل هذه الأحلام ليس محتوى الذكرى بل « واقعيتها » : " لقد أتيت كل هذا حقيقة بالأمس " .

على أن العلل المزعجة للنوم ، أى مصادر فعل الحلم ، قد تتعدد أنواعها ، وأن المنبهات الحسية والتبهيجات الجسمية قد تعمل على السواء عمل الحوافز إلى الحلم ، ولكن الاختلاف بين الآراء يتسع فيما يتصل بالإثارة الذى يبدونه لهذا المصدر من مصادر الحلم أو ذلك ، وفى درجة الأهمية التى يضيفونها إليها من حيث هى عوامل فى تكوين الحلم .

فإذا حصرنا منابع الحلم انقسمت أربع طبقات ، وهذه الطبقات قد استخدمت أيضاً فى تصنيف الأحلام أنفسها : (١) منبهات حسية خارجية (موضوعية) ، (٢) منبهات حسية داخلية (ذاتية) ، (٣) منبهات جسمية باطنية عضوية ، (٤) مصادر نفسية خالصة للتنبية .

١ - المنبهات الحسية الخارجية

لقد نشر شرومبل الصغير - وهو ابن الفيلسوف الذى اهتمدنا فى مشكلات الحلم بهدى مؤلفه عن الأحلام مراراً كثيرة من قبل - وصفاً رائعاً لمريض أصيب بفقدان عام للحساسية على سطح جسمه وشلل عدة من أعضائه الحسية الأعلى مرتبة : كان هذا الرجل يستسلم للنعاس إذا ما أغلقت الأبواب القليلة التى بقيت تطل عنده على العالم الخارجى . وإن من عادتنا أنفسنا حين ننشد النوم أن نعمل على توفير وضع يشبه المتحقق فى وصف شرومبل : فنحن نغلق أهم أبواب الحس - وأعى العينين - ونحاول أن ننأى بسائر حواسنا عن كل منبه أو كل تغيير فى المنبهات الواقعة عليها . وعندئذ ندوق النوم ، وإن كنا لا نفلح أبداً فى محاولتنا كل الفلاح ؛ فما نستطيع أن نبعده عن حواسنا كل منبه إبعاداً تاماً ، ولا أن نعلق قابليتها للتبهيح كل التعليق . وكوننا قد نستيقظ فى كل وقت إذا بلغ منبه حدأ كافياً من الشدة دليل على « أن النفس تمكث حتى فى أثناء النوم على صلة لا تنقطع بالعالم الخارجى » (١) . وليس ما يمنع من أن تصير المنبهات التى تبلغنا على هذا النحو فى خلال النوم مصادر للأحلام .

ومن أمثال هذه المنبهات عدد وفير يتفاوت بين تلك المحتمومة التى تتضمنها حالة النوم ذاتها أو لا نجد منتدحاً عن السماح بها من حين إلى حين ، وتلك العارضة الموقظة التى يكون

(١) [أنظر ملاحظات بورداخ المذكورة فى صفحة ٨٨ .]

من شأنها أن تنهى نومنا ولقد تنبيه فعلا . فقد ينفذ ضوء ساطع إلى أعيننا ، أو تبلغ ضوءا سمعنا ، أو تهيج مادة رائحة غشاء الأنف المخاطي . وقد نتحرك في أثناء النوم حركة غير إرادية فنكشف عن جزء من الجسم ونعرضه لأحاسيس البرد ، أو نغير وضعنا فيكون ذلك سبباً في أحاسيس بالضغط والملاسة . وقد تلذعنا بعوضة أو يطبق طارئ صغير من طوارئ الليل على عدة من الحواس معاً . ولقد جمع انتباه الملاحظين عدداً كاملاً من أحلام بلغ فيها التوافق بين المنبه الذي يتبينه المرء إذ يستيقظ عليه وبعض محتوى الحلم مدى بعيداً جداً حتى أنه أمكن أن نعرف في هذا المنبه مصدر هذا الحلم .

وأنقل عن يسّن (١٨٥٥ ، ٥٢٧) مجموعة من أمثال هذه الأحلام التي يمكن تأثرها إلى تنبيه حسي موضوعي - عارض إلى حد يزيد أو ينقص - : « يثير كل صوت يدرك إدراكاً غير متميز صوراً حلمية توافقه : فينقلنا هدير الرعد إلى حومة الوغى ، ويستحيل صياح الديك إلى صرخة رجل وليه الرعب ، ويستجلب صرير الباب لصوفاً غزاة . »
 « فإن انزاح عنا الغطاء في أثناء الليل فقد نرى أننا نتجول عرايا أو نقع في الماء ، وإن استلقينا على السرير بعرضه وتجاوزت قدمانا حده حلمنا بالوقوف على شفا جرف مروع أو بالسقوط من مرتفع شديد الانحدار . وإن اتفق أن اندفن رأسنا تحت الوسادة حلمنا بصخرة ضخمة معلقة من فوقنا ، توشك أن تقبرنا تحت ثقلها . وتراكم المنى تنتج عنه أحلام معسولة بينما تؤدي الآلام الموضوعية إلى تخيل معاملة مغلظة أو هجوم عدائي أو أذى يلحق الجسم . . . »

« وحلّم ماير (١٧٥٨ ، ٣٣) ذات مرة بنفر من الرجال هجموا عليه وطرحوه أرضاً ثم جعلوا يدقون وتبدأ في الأرض بين إصبع قدمه الكبير والإصبع الذي يليه . وبينما كان يتخيل ذلك في الحلم ، استيقظ فرأى قشة لصقت بين إصبعيه هذين . ويحكى هسنجر (١٧٨٤ ، ٢٥٨) عن ماير أيضاً أنه قد حلم في مرة أخرى بالشنق إذ كان قميصه مشدوداً إلى عنقه شداً أحكم وثاقه بعض الشيء . وحلم هوفباور وهو شاب بأنه يسقط من فوق جدار عال ، فلما استيقظ رأى أن قائمة السرير قد تهافت وأنه وقع على الأرض حقيقة . . . ويروى جريجورى أنه نام مرة وزجاجة من الماء الساخن على قدميه ، فرأى في الحلم أنه يصعد قمة جبل إتنا حيث كانت حرارة التربة لا تطاق . وحلم رجل آخر ، نام بعد أن وضع كمادة ساخنة على رأسه ، بجماعة من الهنود الحمر يتزعون شواته ، في حين هيء إلى ثالث ، نام في

جلباب مبلول ، أن تيار ماء يجرفه . وكانت نوبة من نوبات القرس طرأت فجأة في خلال النوم سبباً قذف في روع مريض أنه مائل بين يدي محكمة التفتيش ممدداً على خشب التعذيب (ماكنيش) . »

ومن شأن الحجة المستندة إلى التماثل بين المنبه ومحتوى الحلم أن تزيد قوة إذا أمكن أن ندخل منبهاً حسيّاً ما على النائم إدخالاً متعمداً فتثير عنده حلماً يتفق وهذا المنبه . ولقد سبق جيرو دي بوزارانج ، على ما يرويه ماكنيش ، إلى أمثال هذه التجارب : « ترك ركبته عارية ، فحلم أنه يسافر ليلاً في إحدى عربات البريد . وهو يلاحظ بهذه المناسبة أن المسافرين بهذه العربات يعلمون من غير شك كم تبرد ركبهم في أثناء الليل . وفي مرة أخرى ترك مؤخر رأسه عارياً فحلم بأنه يشارك في أداء أحد الطقوس الدينية في الهواء الطلق — وكان من عادات البلد الذي عاش فيه أن تغطي الرأس دائماً إلا في مثل هذه المناسبة . »

وحديثاً أورد موري بضع ملاحظات عن أحلام عمد إلى إثارتها في نفسه (وإن لم تؤد بضعة تجارب أخرى له إلى نتيجة ما .)

١ — هُيِّجَت شفتاه وأزنية أنفه بريشة ؛ فحلم بلون مروع من ألوان التعذيب : قناع من القطران يلصق على وجهه ثم ينزع عنه فينسلخ معه الجلد .

٢ — حُكَّ مقص على ملقاط ؛ فسمع قرع أجراس ، ثم دقات ناقوس الخطر ، ثم إذا هو يعود إلى أيام [ثورة] يونيه من عام ١٨٤٨ .

٣ — أدنى ماء الكولونيا من شمه ؛ فرأى نفسه في القاهرة في محل جان ماريا فارينا ، ثم تبعت ذلك مغامرات مجنونة لم يستطع ذكرها .

٤ — قرص عنقه قرصاً خفيفاً ؛ فحلم بدهان من الخردل يوضع عليه ، وفكر في طبيب كان يعالجه في طفولته .

٥ — قرب حديد موقد من وجهه ؛ فحلم بجماعة من « الموقدين »^(١) اقتحموا المنزل وأرغموا أصحابه على تسليم نقودهم بزوج أقدامهم في السعير ، وعندئذ دخلت دوقة أبرانتس التي كان يعتقد في الحلم أنه كاتب سرها .

(١) Chauffeurs اسم أطلق على عصابات من اللصوص انتشروا في مقاطعة الفانديه [في أيام الثورة الفرنسية] وكانوا يلجأون إلى هذا اللون من التعذيب .

٨ - أسقطت قطرة من الماء على جبهته ؛ فأخذ يتصبب عرقاً في إيطاليا ويشرب من نبيذ أورفيتو الأبيض .

٩ - أسقط نورشمعة على وجهه من خلال ورقة حمراء ؛ فحلم بسماء مكفهرة وسُعار وبعاصفة بحرية كان قد شهدا في قناة المانش .

وروى دُرْفَاي وُفيجانت وغيرهما محاولات أخرى في إحداث الحلم بالتجريب .

ولقد عقب كثير من الكتاب على « قدرة الحلم العجيبة على أن يدخل في نسيجه انطباعاً مفاجئاً آتياً من العالم الخارجي بحيث يظهر هذا الانطباع في الحلم في صورة كارثة سبق التمهيد لها وسوقها بالتدرج » (هيلد برانت) . ويمضى هذا المؤلف فيقول : « كنت أستخدم في سنى الشباب منبهاً لكي أستيقظ في ساعة معينة من كل صباح . ولقد حدث مئات من المرات أن أدرج الصوت المنبعث عن هذه الآلة في حلم يبدو بالغ الطول مترابط الأجزاء إدراجاً محكماً ، حتى ليبدأ إلينا أن الحلم كله إنما كان يمهّد لهذا الصوت خاصة ، وأنه قد وجد فيه حده المنطقي اللازم أو خاتمته الطبيعية المرسومة . »

هذا ولن ألبث طويلاً دون أن أذكر في مناسبة أخرى ثلاثة من أحلام رزين المنبه هذه . ويقول فولكلت (١٨٧٥ ، ١٠٨) : « حلم مؤلف موسيقى بأنه في حجرة الدراسة يحاول توضيح مسألة من المسائل لتلامذته . فلما فرغ استدار إلى أحد الصبية يسأله : هل فهمتني ؟ فصرخ الصبي كمن به مس : أه يا ! [أى نعم] ، فطفق الحالم يعنف الولد على هذا الصراخ المزعج ، ولكن الفصل جميعه انطلق في صرخات كانت في أول الأمر : أريا ! ، ثم صارت أويريو ! ، ثم فويريو ! ^(١) . وهنا أيقظت النائم صرخات استغاثة من النار كانت تنبعث من الطريق حقيقة . »

وينقل رادشتوك عن جارنييه (١٨٦٥) أن انفجاراً أيقظ نابليون الأول وهو نائم في إحدى العربات من حلم رأى فيه أنه يعبر [نهر] التاليامنتو تحت ضرب المدافع التمسوية إلى أن هب مذعوراً وهو يصيح : « لقد بثت الألغام تحتنا . »

ولورى (١٨٧٨ ، ١٦١) حلم اشتهر أمره : ذلك أنه كان مريضاً يلزم الفراش في غرفته وإلى جواره أمه ، فرأى فيما يرى النائم أن الوقت وقت حكم الإرهاب في عهد الثورة [الفرنسية] ، وجعل يشهد بعض مناظر الموت المروعة ، ثم دُعِيَ إلى المتول أمام المحكمة ،

(١) [الأولى والثانية لا معنى لهما ، والثالثة هي الصرخة المأووفة عند الحريق .]

وهناك رأى روبسبير ومارا وفوكيه - تانفيل وسائر الأبطال المفجعين لهذا العهد الرهيب .
وسأله هؤلاء الحساب ، ثم بعد عدة من التفاصيل لم يعد يذكرها أدين وسبق إلى ساحة
الإعدام يحيط به جمهور لا حصر له . وصعد موري على المنصة وشده الجلاد إلى العارضة
وانقلبت هذه وهوى نصل المقصلة وحس موري برأسه يفصل من جذعه فاستيقظ في هيلة
بلغت آخر الفطاعة - فإذا هو يتبين أن رأس السرير قد سقط فأصاب عموده الفقرى عند
العنق مثلما يفعل نصل المقصلة حقيقة .

ولقد كان هذا الحلم مثار مناقشة ممتعة بين لولوران وإيجر ، دارت رحاها في « المجلة
الفلسفية » (١) ، وكان موضوع المناقشة هو : هل أمكن الحالم أن يحشر مادة بلغت هذا
المبلغ من الرء الفائق - على حسب الظاهر - في البرهة الوجيزة المنقضية بين إدراك المنبه
الموقظ واليقظة نفسها ؟ وكيف كان ذلك ؟

ومن شأن الأمثلة التي من هذا القبيل أن تجعل المنبهات الحسية الموضوعية الطارئة في
خلال النوم تظهر بمظهر أشد مصادر الحلم ثبوتاً ، وهي أيضاً - أعنى هذه المنبهات - تلك
التي يعرف لها غير المختصين شأنًا ما . فلو قد سألت رجلا من عامة المثقفين لا ألفة له بما
كتب عن الأحلام : كيف تنشأ هذه ؟ لكان من المحقق أن يجيبك بإشارة إلى مثال صادفه
عُثِّل فيه الحلم بمنبه حسي موضوعي تبينه الحالم بعد استيقاظه . وأما البحث العلمي فلا
يستطيع الوقوف عند هذا الحد ، بل يرى ما يدعوه إلى إثارة أسئلة أخرى ؛ لما يلاحظه من
كون المنبه الذي يطبع حواسنا في خلال النوم لا يظهر في الحلم بصورته الحقيقية ، بل تحل
محله صورة أخرى مرتبطة به برباط ما . ولكن هذا الرباط بين منبه الحلم والحلم الناجم عن
هذا المنبه إنما هو - بتعبير موري (١٨٥٣ ، ٧٢) - « مناسبة ما ، ولكنها ليست بالفريدة
المانعة » (٢) فلو أننا نظرنا في ثلاثة من أحلام زنين المنبه التي يرويها هيلد برانت ، لم يكن
بد من السؤال : لماذا أثار المنبه الواحد ثلاثة أحلام متغايرة ؟ ولماذا أثار هذه دون غيرها ؟

يقول هيلد برانت (١٨٧٥ ، ٣٧) : « هأنذا في صبيحة يوم من أيام الربيع أتروض
بين الحقول الآخذة في الاخضرار حتى أبلغ قرية مجاورة فأرى أهلها وقد برزوا في أحسن
ثيابهم وتأبطوا كتب الترايل متوجهين زرافات إلى الكنيسة . طبعاً ! فاليوم يوم الأحد

[“Revue Philosophique”]

(١)

[Une affinité quelconque, mais qui n'est pas unique et exclusive.]

(٢)

وصلاة الصباح الباكر تؤذن بالبدأ . فأعقد العزم على حضورها ، بيد أنني - وقد شعرت بالحر قليلا من أثر المشي - أذهب أولا إلى الفناء المحيط بالكنيسة ألتبس نفحة من البرد . وبينما أقرأ بعض شواهد القبور سمعت قارع الأجراس يصعد البرج ، وها هو ذا جرس الكنيسة أراه في أعلى البرج يوشك على الدق إيداناً ببدء العبادة . إنه يظل برهة معلقاً حيث هو ، بلا حراك . ثم فجأة أخذت دقاته في الدوى جلية نفاذة . وكان من مبلغ جلائها ونفاذها أنها أطارت نومي - ولكن الرنين كان رنين المنبه في الساعة الموعودة .

« وها هو ذا مثال ثان : اليوم يوم وضيء من أيام الشتاء ، والشوارع يكسوها ثلج سمك . وكنت على موعد والبعض لئزهة في مزلقة . وكان عليّ أن أنتظر فترة طويلة قبل أن يعلن مجيء المزلقة بالباب . ويبدأ إعداد المزلقة لركوبها : سجاداة الفراء تبسط ، ومدافئ الأقدام تعد ، وفي النهاية أتخذ مكاني . ومع هذا ظلت لحظة الرحيل مرجأة ، إلى أن هُزرت للجم تؤذن للخيول المترقة بالانطلاق . وتنطلق هذه وتمز أجراس المزلقة هزاً عنيفاً ، مرسله جلجلتها المألوفة الأشبه بموسيقى الانكشارية - مرسله إياها في عنف كان من أثره أن تمزقت شبكة الحلم العنكبوتية في لمح البصر تمزيقاً . ومن جديد لم يكن غير المنبه برنينه الحاد .

« ومثال ثالث : أرى خادماً تتقدم في البهو المؤدى إلى غرفة الطعام وهي تحمل عشرات من الأواني الخزفية رُص بعضها فوق بعض . وبدا لي أن عمود الخزف الذي تحمله بين ذراعها في خطر من أن يختل توازنه ، فصحت محذراً : انتبهى وإلا سقط حملك كله ! وتعقب هي بالطبع بالحواب المحتوم : إنها قد ألفت مثل هذا العمل من قبل . . . إلخ . وفي أثناء ذلك أستمر على متابعة هذا التأرجح بعين قلقة . ولا يخيب ظني . فها هي ذى تعثر بعتبة الباب وتترلق الأواني الهشة وتقعقع وتقرقع متناثرة على الأرض في مئات من القطع . ولكني لا ألبث أن أتبين أن هذا الدوى الذي لا ينتهى ليس قرعة بل رنيناً حقيقياً - رنيناً أعلم منه وأنا أعود إلى نفسى المستيقظة أن المنبه يؤدي واجبه . »

ويكاد السؤال عن السبب الذي من أجله تخطئ النفس في الحلم طبيعة المنبهات الحسية الموضوعية أن يلقي جواباً واحداً من شرومبل وفوننت جميعاً . وهذا الجواب هو أن استجابة النفس في الحلم تجاه ما يصل إليها من المنبهات في أثناء النوم تتم تحت شروط تعين على تكوين الأوهام . ذلك لأننا نعرف انطباعاً حسياً ما ، نفسه تفسيراً صحيحاً ، أى ندرجه في طائفة الذكريات التي ينتمى إليها بحسب خبراتنا السابقة جميعها ، إذا توافر لهذا

الانطباع حظ كاف من القوة والجلاء والدوام ، وإذا توافر لنا وقت يكفي عملية تعرفه . فإذا انتفى هذان الشرطان أخطأنا الموضوع الذى يصدر عنه الانطباع ووهنا فيه . « فلو أن رجلاً خرج إلى الحقول فرأى عن بعد موضوعاً ما رؤية غير متميزة ، فقد يظنه فى مبدأ الأمر حصاناً . » فإن قرب منه فقد يفسره ببقرة راقدة ، ثم قد ترتد الصورة أخيراً على وجه التحديد إلى جماعة من الناس جلوس على الأرض . وهكذا الشأن فى الانطباعات التى تتلقاها النفس أثناء النوم ، فطبيعتها تخلو بالمثل من التحديد ، وعلى أساسها تقيم النفس الأوهام ، من حيث إن الانطباع يثير عدداً كبيراً أو صغيراً من الصور الذكورية التى من طريقها تحصل للانطباع قيمته النفسية . ولكن من أى طائفة من عديد طوائف الذكريات التى تدخل عندئذ فى الاعتبار سوف تستثار الصور التى تنسب إلى الانطباعات ؟ وأى روابط من روابط التداعى سوف تعمل عملها فى ذلك ؟ هذا أيضاً ما يظل فى نظرية شرومبل من غير تحديد ، كأنه أمر متروك لأهواء النفس .

وهنا نواجه اختياراً بين أحد أمرين : فلما أن نسلم تسليمنا بحقيقة واقعة بأن من المحال متابعة القوانين التى تحكم تكوين الأحلام إلى أبعد من هذا المدى ، وعلى ذلك نمتنع عن البحث فيما إذا كانت هناك شروط أخرى تحتم التفسير الذى يخلعه الحالم على الوهم الذى استدعاه الانطباع الحسى ، وإما أن نقدر أن المنبه الحسى الذى يبلغ التلزم إنما هو مصدر متواضع فى توليد الحلم وأن هناك عوامل أخرى تحدد اختيار الصور الذكورية التى تثار فيه . والحقيقة هى أننا إذا فحصنا أحلام مورى المحدثنة بالتجريب — وهى أحلام أفضت فى ذكرها من أجل هذا الغرض — رأينا ما يغرينا بالقول : إن التجربة لاتبين فى الحقيقة سوى مصدر عنصر واحد من عناصر الحلم ، وأما سائر محتواه فيبدو أكثر استقلالاً وأكثر تعيناً فى جزئياته من أن يعلله اقتضاء واحد كضرورة موافقته للعنصر المدخّل من الخارج بالتجريب . نعم إن المرء لا يلبث أن يتشكك فى نظرية الوهم وفى قدرة الانطباعات الموضوعية على تشكيل الحلم حين يرى أن هذه الانطباعات تخضع أحياناً فى الحلم لأغرب التفاسير وأبعدها . مثال ذلك ما يحدثنا به م . سيمون من حلم رأى فيه أشكال عمالقة جلسوا إلى مائدة وسمع لأفكهم طقطقة رهيبة وهم يمضغون ، فلما استيقظ سمع حوافر حصان يركض قريباً من نافذته . فإذا كان وقع حوافر الحصان قد أثار فى هذه الحالة بالذات أفكاراً من نطاق الذكريات المحفوظة عن « رحلات جاليفر » ، مثل الإقامة بين عمالقة

« بروبيدينجناج » والإقامة بين مخلوقات الفاضلة المصورة على صورة الجياد - هذا إذا جاز
 لى أن ألتى بتخمين محض دون سند من الحالم نفسه - أفلا يرجح أن تكون هناك دوافع
 أخرى عدا المنبه الموضوعى هى التى سهلت انتقاء طائفة من الذكريات هذا مدى بعدها عن
 المؤلف (١) ؟

٢ - التهييجات الحسية الداخلية (الذاتية)

من الواجب أن نسلم بأن نصيب المنبهات الحسية الموضوعية فى إثارة الحلم يظل غير
 منازع ، مهما كان من أمر اعتراضاتنا . وإذا كانت مثل هذه المنبهات تبدو من حيث
 طبيعتها ومدى تردها غير كافية فى تعليل كل صور الحلم ، فإنما يحثنا ذلك على أن نلتمس
 للحلم مصادر أخرى تعمل مثل عملها . ولست أدرى متى انبعثت للمرة الأولى الفكرة الداعية
 إلى أن يحسب حساب التهييجات الداخلية (الذاتية) لأعضاء الحواس إلى جانب المنبهات
 الحسية الخارجية ، ولكن الواقع هو أن جميع المؤلفات الحديثة فى علمية الحلم تنص على ذلك
 نصاً صريحاً ينقص فى صراحته أو يزيد . فيقول فونت (١٨٧٤ ، ٦٥٧) : « وأعتقد أن
 جزءاً جوهرياً من أوهام الحلم يرجع كذلك إلى الإحساسات الذاتية البصرية والسمعية التى
 نألفها فى حال يقظتنا فى صورة نقاط وضاءة تسرح فوضاها فى حقل البصر إذا أظلم ، أو
 طنين أو صفير فى الأذن ، إلى آخر هذه الإحساسات التى تدخل ضمنها التهييجات الذاتية
 للشبكية بنوع خاص . وهذا هو ما يعلل ميل الحلم الملحوظ إلى أن يهر أبصارنا بموضوعات
 زاخرة تماثل هذه الإحساسات أو لا تفتقر منها ، فينشر أمامنا عدداً لا حصر له من
 الطيور أو الفراشات أو الأسماك أو الحرز الملون أو الزهور . . الخ . فالغبار المضيء فى
 حقل البصر المظلم قد اتخذ هنا أشكالاً ممعنة فى الخيال ، والحبيبات المتكررة التى يتكون منها
 هذا الغبار قد صار منها عدد يناظرها من متفرق الصور أدرج فى جوف الحلم ، وتلوح

(١) إن ظهور الأشخاص الذين لم أحجم العالقة فى الحلم يجعلنا نقدر أن الحلم يمس شهدا من طفولة

الحالم .

ويبقى بعد ذلك أن التفسير الذى أوردته لهذا الحلم بالإشارة إلى ذكريات من رحلات جاليفر مثال طيب
 ما يجب ألا يكون عليه تفسير الحلم : فن الواجب على من يفسر الحلم ألا يطلق العنان لقرينته مهمل مستدعيات

حالم .

هذه الصور في هيئة موضوعات متحركة ؛ لحركة هذا الخليط كله . وهذا ولا شك هو أيضاً الأساس في ولع الحلم العظيم بصور الحيوان على أنواعها ؛ لأن في هذه الصور من التنوع والثراء ما يستطيع أن يجارى من غير عناء الأشكال المغربية التي تتخذها الصور الضوئية الذاتية . »

ولتهييجات الحسية الذاتية من حيث هي مصدر من مصادر صور الحلم مزية واضحة على المنبهات الموضوعية ؛ فهي لا تتوقف على مثل هذه الصدفة الخارجية ، بل تقف طوع اليد - إن جاز التعبير - كلما دعت إلى ذلك حاجة التعليل . ولكنها لا تخرج غائمة من مقارنتها بالمنبهات الحسية الموضوعية ، من حيث أن نصيبها في إثارة الحلم يصعب إثباته بالملاحظة والتجريب بل يتعذر ، على عكس الحال في المنبهات الموضوعية . فالشاهد الوحيد الذى يؤيد قوة التهييجات الحسية الذاتية على إثارة الحلم يتلخص فيما يعرف باسم هلاوس ما قبل النوم التى يصفها يوهانس موللر بقوله : إنها « ظواهر خيالية بصرية » . وهذه الظواهر صور يغلب أن تكون شديدة الوضوح ، سريعة التغير ، تنزع إلى الظهور - ظهوراً مطرداً عند الكثير من الناس - في فترة الأخذ في النوم ، وقد تدوم أيضاً برهة بعد فتح العينين . ولقد درس مورى هذه الظواهر التى كانت تعرض له كثيراً ، وانتهى إلى توكيد صلتها بصور الحلم بل وحدتهما (مثلما صنع موللر من قبله) . ويقول مورى : إن إحداث هذه الظواهر يستلزم قدراً معيناً من الاستسلام النفسى ، بعضاً من الإرخاء لجهد الانتباه (١٨٧٨ ، ٥٩ وما يليها) . بيد أنه يكفى أنه تحل بالمرء حالة سبات من هذا القبيل لا تزيد مدتها على الثانية لكى تقع إليه هلوسة قبنومية (بشرط أن يكون عنده الاستعداد الضرورى) ، وقد يستيقظ المرء بعد ذلك مرة ثانية ، ويتكرر هذا اللعب ، إلى أن يضع له النوم حداً . ووجد مورى أنه كان إذا عاد إلى الاستيقاظ بعد برهة ليست بالطويلة أمكنه أن يتبين في حلمه ذات الصور التى تأرجحت أمام ناظره في صورة هلاوس قبنومية ، قبل أن يأخذه النوم (ص ١٣٤ ذات المرجع) . ففي ذات مرة أخذت أشكال ممسوخة شامت وجوهها وتقلنست بقلنسوات غريبة الهيئة ، أخذت تلح عليه قبل أن يغلبه النوم في بلحاجة تفوق التصور ، فلما استيقظ تذكر أنه قد حلم بها . وفي مرة أخرى - وكان يعانى ألم الجوع فقد أخذ نفسه بنظام محدد في التغذية - لاحظت له رؤيا قبنومية من طبق ويد مزودة بشوكة تتناول منه الطعام ، فلما نام حلم بمائدة حافلة وسمع صوت

الآكلين بأشواكهم . وحدث بعد في مرة ثالثة أنه شرع في النوم وعيناه مهتاجتان موجعتان فترأت له هلوسة قبنومية عن علامات غاية في الدقة لم يستطع فكها إلا واحدة فواحدة بمشقة بالغة ، فلما استيقظ بعد ساعة من النوم تذكر حلاماً رأى فيه كتاباً طبع بحروف صغيرة جدا كان يقرأها بمشقة بالغة .

ولقد تخطر قبيل النوم أيضاً هلاوس سمعية بألفاظ أو أسماء أو غيرها – على نحو ما تفعل الصور البصرية – ثم تتردد هذه الهلاوس بعد ذلك في حلم ما ، مثلما تعلن فاتحة عن رؤوس الموضوعات النغمية المقدر سماعها في الأوبرا اللاحقة .

وعلى منهاج شترومبل ومورى نهج باحث أحدث عهداً هوج . ترمبال لاد . فقد أمكنه ببعض المرات أن يفلح في إيقاظ نفسه فجأة دون أن يفتح عينيه بعد أن ينام نوماً تدريجياً ، تتراوح مدته بين الدقيقتين والخمس دقائق ، وبذا أمكنته المقارنة بين الأحاسيس الشبكية التي تكون آخذة في الانحاء آنئذ وصور الحلم المتبقية في الذاكرة . وهو يؤكد أننا نجد في كل حالة علاقة باطنية بين الطرفين : فنقاط الضوء الشبكي أو خيوطه تزودنا – إن جاز التعبير – برسم مجمل أو بياني للأشكال المدركة في الحلم إدراكاً نفسياً . مثال ذلك حلم رأى فيه نفسه منكبا على قراءة سطور مطبوعة انتشرت أمامه في وضوح ، وكانت تقابل هذا الحلم في الشبكية مجموعة من النقاط المضئنة تنضدت في خطوط متوازية ، أو بتعبيره نفسه : لقد حالت الصفحة المطبوعة طبعاً جلياً في الحلم إلى موضوع لاح لإدراكه المستيقظ كأنه قصاصة من صفحة مطبوعة حقيقة ، ينظره إليها المرء من خلال ثقب في ورقة ، على مسافة لا تسمح له بأن يستخلص منها شيئاً ما استخلاصاً واضحاً . ويرى لاد – دون أن ينتقص شأن العوامل [الخفية] المركزية – أنه لا يكاد يكون ثمت حلم بصرى واحد لا تشارك فيه مادة مصدرها التهييج الداخلي لشبكة العين . ويصدق ذلك بنوع خاص على الأحلام التي تعقب النوم في غرفة مظلمة ، وأما مصدر التنبيه في الأحلام التي تقع في الصباح قبيل الاستيقاظ ، فهو الضوء الموضوعي الذي ينفذ إلى العينين في غرفة أخذ يغمرها النور . وإن ما يتميز به تهيج الضوء الشبكي من طابع التغير والتقلب غير المنقطعين ليساير ما تطالعنا به الأحلام من التعاقب المستمر للصور أدق مسابرة . فإذا علقنا على ملاحظات لاد هذه أهمية ، لم نستطع الاستهانة بما لهذه المصادر الذاتية للتنبيه من أثر في

الحلم ؛ فالصور كما نعلم هي المقوم الرئيس للأحلام . وأما نصيب الحواس الأخرى - فيما خلا السمع - فقليل الأهمية ، غير موصول .

٣ - المنبهات الجسمية الداخلية العضوية

أما وقد أخذنا نلتمس مصادر الحلم في داخل الكائن العضوى وليس خارجه ، فمن الواجب علينا أن نذكر أن جميع أعضائنا الباطنة على التقريب - وإن تكن لا تكاد توقفنا على شيء من أمرها وهي في حالة الصحة - تصبح مصدراً لإحساسات ذات نوع أليم في الأغلب إذا اتفق وجودها فيما نسميه حالات التهيج أو في خلال المرض ؛ ولهذا وجبت مساواتها بالمنبهات الحسية أو الأليمة التي تصل إلينا من الخارج . ولا يعدو شرومبيل أن يعرب عن خبرة قديمة قدم الزمن إذ يقول (١٨٧٧ ، ١٠٧) : « إن النفس تصير في أثناء النوم أعمق وأشمل إحساساً بجسميتها منها في يقظتها ، وهي تضطر في خلاله إلى أن تستقبل ما لا حس لها به في يقظتها من انطباعات تصدر عن أجزاء من الجسم أو عما يصيب الجسم من التغييرات ، وتضطر إلى التأثر به » ؛ فقد كان من رأى أرسطو على مبلغه من القدم أن من الممكن كل الإمكان أن يستشعر المرء في أحلامه مبادئ مرض لم يستطع أن يلحظ شيئاً منها في حياة اليقظة ، وذلك لما يصيب الانطباعات من التجسيم على يد الحلم (انظر ما سبق في ص ٤٤) . وهناك كتاب أطباء لا شك في بعدهم عن الاعتقاد بقدرة الأحلام على التنبؤ ، وهم مع هذا قد سلموا لها بهذه الدلالة فيما يتعلق بالإنباء بالمرض على الأقل . (أنظر سيمون ، ١٨٨٨ ، ٣١ وكثيراً من المؤلفين السابقين عليه .)^(١)

(١) من الواجب أن نذكر أهمية الأحلام العلاجية بين القدماء ، إلى جانب ما كان يعزى إليها (عند هيبوقراط مثلاً) من هذه القيمة التشخيصية .

لقد كانت عند اليونان معابد تقضى فيها كهانة الأحلام . وكان من عادة المرضى أن يزوروا هذه المعابد ، فيدخل المريض معبد أبولو أو آيسكلابيوس ، وهناك يؤدى طقوساً مختلفة ، فيغسل ويدلك ويعطر ثم يمد وقد أخذته الآخذة على جلد كيش قدم قربانا . ثم بعد ذلك يستسلم المريض للنوم ، فيحلم بمقاير شافية قد تترامى له في أشكالها الطبيعية أو في رموز وصور يتولى الكاهن عندهند تفسيرها .

وللاستزادة في موضوع الأحلام المطيبة عند اليونان انظر : نيمان (١٩٠٨ ، ١ ، ٧٤) وبوشيه لوكلير وهرمان (١٨٥٨ ، ٤١ ثم ١٨٨٢ ، ٣٨ ، ١٦) وبوتينجر (١٧٩٥ ص ١٦٣ وما بعدها) ، ولويد (١٨٧٧) ، ودولينجر (١٨٥٧ ، ١٣٠) .

ويبدو أن الأمثلة على قوة الأحلام التشخيصية لا تعدم مصدقين في الأزمنة الحديثة . فهكذا ينقل تيسيه عن أرتيج (١٨٨٤) قصة امرأة في الثالثة والأربعين من عمرها ظلت تعذبها أحلام هيلة ^(١) طوال بضع سنوات على رغم ما كان يبدو من اكتمال صحتها، ثم كان أن فحصها الأطباء فوجدوا بها مرضاً بادئاً من أمراض القلب لم يلبث أن أنفذ فيها فعله .

وأما الاضطرابات السافرة التي تصيب الأعضاء الباطنية ، فواضح أنها تعمل على إثارة الحلم في عدد كبير من الحالات . فشيوع أحلام الهيلة وأمراض القلب والرئتين أمر يعلمه الجميع . ولقد أبرز هذا الجانب من جوانب الحياة الحاملة مؤلفون متعددون، حتى أنني أقنع بمحض الإشارة إلى ما وضع في هذا الباب : رادشوك ، شبيتا ، موري ، م . سيمون ، تيسيه، بل إن من رأى تيسيه أن نوع العضو المريض يفضي على محتوى الحلم سماته الخاصة : فأحلام من يعانون أمراض القلب وجيزة في العادة وتنهي إلى نهاية مروعة في لحظة اليقظة ولا يكاد يكون بينها حلم إلا تضمن محتواه بعض مواقف الموت الرهيب ، وأما المصابون بأمراض الرئتين فيحلمون بالاختناق والزحام والفرار وهم يستهدفون إلى درجة ملحوظة للكابوس المألوف الذي أفلح بورنر في إثارته إثارة تجريبية : بالنوم مستلقياً على الوجه أو بسد الفتحات التنفسية . فإذا اضطرب الهضم تضمنت الأحلام أفكاراً تتعلق بالاستمتاع بالطعام أو الاشمئزاز منه ، وأخيراً فأثر التهييج الجنسي في محتوى الحلم شيء يستطيع كل امرئ أن يقدره حق قدره بالرجوع إلى خبرته ، وهو الذي يزود نظرية المنبهات العضوية جميعها بأقوى سندها .

وفوق هذا ، ما من أحد تغلغل فيما كتب في هذا الموضوع إلا تبين أن بعض المؤلفين (مثل موري وفيجانت) قد ذهبوا إلى الاشتغال بمشكلات الحلم للأثر الذي كان لأمرضهم أنفسهم في محتوى أحلامهم .

غير أن هذه الوقائع — وإن ثبتت من وراء كل شك — ليس لها الخطر الذي قد نظنه من حيث ما تضيفه إلى دراسة مصادر الحلم ؛ فالأحلام ظواهر تقع للأصحاء — وربما كانت تقع لهم جميعاً وربما كان وقوعها في كل ليلة — فمن الواضح أن المرض العضوي لا يمكن أن يعد بين شروطها اللازمة . والذي يشغلنا ليس مصدر هذا الفريق من الأحلام أو ذاك ، بل المصادر الباعثة على مألوف الأحلام عند السوي من الناس .

(١) [أنظر الهامش الموضوع في صفحة ١٨٤ عن هذه الكلمة .]

ومع هذا فما نحتاج إلا إلى أن نخطو بعد ذلك خطوة لكي نجد مورداً من موارد الحلم يفوق كل ما سبق ثراء ، مورداً يبدو كأنه لن ينضب له معين . ذلك لأنه إذا كان من المؤكد أن باطن الجسم يصير حين المرض مصدر منبهات للأحلام وكنا نسلم بأن النفس إذ تنصرف في أثناء النوم عن العالم الخارجي تتمكن من التحول بقسط أعظم من انتباهها إلى باطن الجسم ، لم يصعب علينا أن نفترض بعد ذلك أن أعضاءنا الباطنية ليست بحاجة إلى أن تمرض أولاً لكي تتمكن ثانياً من حمل النفس النائمة على أن تتلقى منها التهييجات التي تنقلب إلى صور في الحلم على نحو من الأنحاء . فالحساسية العامة بالجسم ^(١) التي ندركها في خلال اليقظة إدراكاً مبهماً في صورة كيف غامض لمزاجنا وحسب ، والتي تشترك في بها أنظمتنا العضوية جميعاً — على ما يرى الأطباء — تسمى في أثناء الليل ، إذ يشتد تأثيرها ويتميز فعل كل مقوم من مقوماتها ، أقوى المصادر الباعثة على صور الحلم وأكثرها شيوعاً . وإذا كان الأمر كذلك لم يبق إلا أن نستقصى القوانين التي تتحول المنبهات العضوية بمقتضاها إلى صور حلمية .

تلك — في منشأ الحلم — هي النظرية التي تحظى بإيثار المؤلفين الأطباء قاطبة . وإن الغموض الذي يحجب عن معرفتنا لب وجودنا (” الأنا الحشوي ” ^(٢) — بتعبير تيسيه) ، ثم هذا الذي يشمل بظلامه نشأة الحلم ليتوافقان توافقاً لم يترك للفكر مناصاً من التقريب بينهما . وسبب آخر جعل لهذه الوجهة في التفكير التي ترجع صور الحلم إلى الإحساسات العضوية النباتية جاذبية خاصة في أعين الأطباء : هو كونها تسمح بتعليل موحد للحلم وللاضطراب العقلي على السواء — وهما اللذان تكثر أوجه التطابق بين مظاهرها أيما كثرة . ذلك أن تغيرات الحساسية العامة بالجسم وكذلك المنبهات المنبعثة من الأعضاء الباطنية تحسب لها جميعاً خطورة قصوى في نشأة حالات الدهان أيضاً . وما من عجب بعد ذلك إذا أمكن أن نتبع نظرية التنبية العضوي إلى أكثر من داعية توصل إليها مستقلاً .

ولقد كان للرأى الذي بسطه الفيلسوف شوبنهاور في سنة ١٨٥١ تأثير حاسم في فريق من الكتاب . فالصورة التي يظهر لنا العالم عليها تنشأ — وفقاً لرأيه — بأن يأخذ عقلنا الانطباعات التي تأتيه من الخارج فيصحبها في صور الزمان والمكان والعلية . ولا تحدث المنبهات

(١) [وهي المعروفة عندنا باسم ” الحساسية الحشوية . ”]

(٢) [” moi splanchnique ”]

المنبثقة في أثناء النهار من داخل الكائن العضوى ، من المجموع العصبى السمبتاوى ، إلا تأثيراً لا شعورياً في مزاجنا على أكثر تقدير . فإذا جاء الليل ولم تعد تصم آذاننا انطباعات النهار استطاعت تلك المنبثقة من الداخل أن تجتذب الانتباه ، مثلما نسمع في هدوء الليل خرير نبع أغرقته ضوضاء النهار . ولكن كيف للعقل أن يستجيب لهذه المنبهات إلا بأن يؤدي تجاهها وظيفته الخاصة به ؟ وعلى ذلك سوف تصاغ من هذه المنبهات موضوعات تشغل المكان والزمان وتخضع لقوانين العلية ، وهكذا تنشأ الأحلام . ولقد حاول شرر - ومن ورائه فوللكت - أن يستقصى بعد ذلك أمر العلاقة بين المنبهات الجسمية وصور الحلم ، إلا أنني أرجئ النظر في هذه المحاولة إلى التقسم الخاص بنظريات الحلم .

وفي بحث بلغ مبلغاً ملحوظاً من التماسك المنطقي ، قام الطبيب النفسى كراوس [١٨٥٩ ، ٢٥٥] بتتبع منشأ الأحلام والأهذية والأفكار الهجاسية إلى عامل واحد ، هو الإحساسات ذات الأصل العضوى . ومن الصعب في رأيه أن نجد جزءاً واحداً في الكائن العضوى يعجز عن أن يكون مبدأ حلم أو هجاس . والإحساسات الناجمة عن شروط عضوية « تجوز قسمتها قسمين : (١) تلك التى يتكون منها مزاجنا العام (الحساسية العامة بالجسم) و (٢) إحساسات نوعية خاصة بالكائن العضوى النباتى . وهذه تنقسم بدورها خمسة أقسام : (أ) إحساسات عضلية (ب) تنفسية (ج) هضمية (د) جنسية « (هـ) خاصة بسطح الجسم . »

ويقدر كراوس أن نشوء صور الحلم من المنبهات الجسمية يتم على ذلك النحو : يستدعى الإحساس المثار صورة تناسبه على حسب قانون من قوانين التداعى ، ثم يتركب من هذه الصورة وهذا الإحساس بناء ذو ترابط عضوى ، إلا أن الشعور يسلك إزاء هذا المركب مسلكاً شاذاً . فهو لا يعير الإحساس انتباهاً ما بل يوجه انتباهه كله إلى الصورة المصاحبة - وهو ما يرينا في الوقت نفسه لم يظل هذا الوضع خافياً علينا طيلة هذا الزمن ^(١) .

ويبتدع كراوس اسماً خاصاً يصف به هذه العملية هو : الاستحالة الجوهرية للإحساس إلى صورة حلمية .

إن تأثير المنبهات الجسمية العضوية في تكوين الحلم أمر يكاد ينعقد عليه الإجماع اليوم . فإذا تساءلنا عن حكم العلاقة بين الطرفين ، افرقت الإجابات ولم تعد أن تكون

(١) [بمعنى أن انصراف الانتباه عن الإحساس جعل نصيب هذا الإحساس في نشأة الحلم يخفى علينا .]

منطوقات غامضة في الكثير من الأحيان . وذلك لأن تفسير الحلم تقع عليه الآن - بناء على نظرية التنبيه العضوى - مهمة خاصة ، هي تأثر محتوى الحلم إلى المنبهات العضوية التي أحدثته؛ فإذا لم يأخذ المرء بقواعد التفسير التي نص عليها شرنر [أنظر ص ١١٥ وما بعدها] رأى المرء نفسه في أحيان كثيرة يواجه تلك الواقعة الشائكة : وهي أن الشيء الوحيد الذى يتم على وجود المنبه العضوى هو على التحديد محتوى الحلم نفسه ليس غير .

بيد أن هناك قدرأ لا بأس به من الاتفاق على تفسير الأنواع المختلفة من الأحلام المسماة أحلاماً «نمطية» لأنها تقع لأناس كثيرين مع تماثل كبير في محتواها . مثال ذلك تلك الأحلام المألوفة بالسقوط من عل أو بوقوع سن أو بالطيران أو بارتباك المرء لعرية أو نقص ردائه . فهذا الحلم الأخير يعزى من غير مزيد إلى كون النائم يدرك أنه قد نحي الغطاء في أثناء نموه فاستهدف للهواء . ويعزى الحلم بسقوط الأسنان إلى منبه «سنى» - وإن لم يعن هذا بالضرورة أن هياج الأسنان الذى ينجم عنه الحلم هياج مرضى . وفي رأى شرومبل أن حلم الطيران هو الصورة التي تراها النفس ملامئة لتفسير التنبيه الناجم عن صعود الرئتين وهبوطهما في وقت تهن فيه الأحاسيس الجلدية للقفص الصدرى حتى لا نعود نشعر بها - وهذه الملابس الأخيرة هي ما يؤدي إلى الإحساس المقترن بفكرة الطواف في الهواء . وأما حلم السقوط من عل ، فيقال : إن مرجعه هو أنه قد يتفق في غياب الشعور بأحاسيس الضغط الجلدى أن يمتد ذراع بعيداً عن الجسم أو تنبسط ركة على غرة بعد انقباض ، ويكون من نتيجة هذه الحركة أو تلك أن يعود الإحساس بالضغط الجلدى إلى الشعور ، فيصور هذا الانتقال إلى الشعور تصويراً نفسياً بحلم السقوط (شرومبل ، ١٨٧٧ ، ١١٨) . وموطن الضعف الواضح في هذه المحاولات على وجاهتها هو كونها تجعل هذه المجموعة من الأحاسيس العضوية أو تلك تدخل في نطاق الإدراك النفسى أو تغيب عنه ، إلى أن يتوافر لها المزيج الذى يوائم التعليل المنشود للحلم . وذلك دون استناد إلى أى شاهد آخر سوى ما تقول . وسوف تعرض لى فيما بعد فرصة العود إلى مسألة الأحلام النمطية ومنشئها . [أنظر صفحة ٢٥٨ وما بعدها .]

ولقد حاول م . سيمون أن يستخلص بعض القواعد التي بمقتضاها تحتم المنبهات العضوية محتوى الأحلام الناجمة عنها ، وذلك بالمقارنة بين طائفة من أمثال هذه الأحلام ، فيقول (١٨٨٨ ، ٣٤) : إذا اتفق في أثناء النوم أن جهازاً عضوياً يشارك مشاركة سوية

في الإعراب عن انفعال ما قد هيجته علة خارجية التهييج الذي يقع له عادة بتأثير ذلك الانفعال ، جاء الحلم مشتملاً على صورة تلامم الانفعال .

وتنص قاعدة أخرى (ص ٣٥) على أنه : إذا نشط في أثناء النوم أحد الأعضاء أو هيج أو أزعج ، أتى الحلم بصور تتعلق بممارسة الوظيفة التي يقوم بها هذا العضو .

ولقد حاول مورلي فولد أن يثبت هذا التأثير الذي تقول به نظرية التنبه الجسمي في إحداث الحلم إثباتاً تجريبياً في دائرة معينة ؛ فكان يغير وضع أطراف النائم في أثناء النوم ثم يقارن بين التغييرات التي يحدثها والأحلام الناجمة عنها . وانتهى من ذلك إلى هذه النتائج :
١ - يطابق وضع الطرف الجسمي في الحلم وضعه في الحقيقة مطابقة تقريبية ، مثال ذلك أننا نرى العضو في الحلم ساكناً وهو في الحقيقة كذلك .

٢ - إذا حلم المرء بأن طرفاً من أطرافه يتحرك ، جاء أحد الأوضاع التي يمر بها الطرف في حركته هذه مطابقاً وضعه الحقيقي .

٣ - قد ينسب الوضع الذي يوجد عليه طرف الحالم نفسه إلى شخص سواه .

٤ - قد يحلم الحالم بعائق يعوق الحركة التي يدخلها المحرب .

٥ - قد يظهر الطرف في الحلم ، بعد أن يتخذ وضعاً تجريبياً ، في صورة حيوان أو مسخ ، وفي هذه الحالة يثبت وجود تماثل ما بين الحدين .

٦ - يثير وضع الطرف أفكاراً في الحلم لها بعض الصلة بهذا الطرف : مثال ذلك أننا نحلم بالأعداد إذا أدخل التغيير على الأصابع .

والذي أجنح إلى استخلاصه من أمثال هذه المكتشفات هو أن نظرية التنبه الجسمي نفسها لا تنتج كل النجاح في رفع ما يبدو عليه اختيار الصور المحدثة في الحلم من مظهر التحرر من الحلم^(١) .

٤ - المصادر النفسية للتنبه

علمنا ونحن ننظر في علاقة الحلم بحياة اليقظة وفي منشأ مادته أن بجنحة الحلم - لا فرق في ذلك بين الأقدمين منهم والمحدثين - يرون أن الناس يحملون بما يصنعون نهاراً ، وبما يشغل اهتمامهم وهم أيقاظ . هذا الاهتمام المنقول من حياة النهار إلى النوم ليس قيئاً نفسياً

(١) لقد نشر هذا المؤلف منذ ذلك الحين مجلدين ضمنهما تجاربه أشير إليهما فيما بعد . [أنظر ص ٢٤٣

وحسب ، رباطاً يشد الحلم إلى الحياة ، إنه أيضاً مورد من موارد الحلم لا يبخس قدره ، مورد ربما كان كافياً أن يعلل صور الحلم جميعاً لو أننا أضفنا إليه الأشياء التي ينجذب إليها اهتمام النائم ، أى المنبهات التي تعمل عملها في خلال النوم . بيد أننا سمعنا أيضاً نقيض هذا الرأي : سمعنا أن الحلم يبعد النائم عن اهتمامات النهار وأن القاعدة هي أننا لا نبدأ نحلم بالأشياء التي تشغل جل اهتمامنا في النهار إلا بعد أن تفقد ما يمتاز به كل طريف من قدرة على الإثارة. وهكذا نصادف في كل خطوة نخطوها في سبيل تحليلنا للحياة الحاملة ما يشعربنا بأنه قد حرم علينا. أن نضع قاعدة عامة بغير التحوط بقيود من « كثير » و « عادة » و « في معظم الأحيان » ، ودون أن نهى أنفسنا للتسليم بصحة الشواذ .

ولو أن اهتمامات اليقظة بالإضافة إلى المنبهات الحادثة في خلال النوم داخلية وخارجية كانت تكفي معاً في استغراق علل الحلم ، لوجب أن نكون في موقف يسمح لنا بتبيان أصل كل عنصر من عناصر الحلم تبياناً شافياً ولحل بذلك لغز مصادر الأحلام ، فلا يبقى إلا أن نحذر نصيب كل من المنبهات النفسية والجسمية في هذا الحلم الجزئي أو ذاك . ولكن الواقع أنه ما من حلم لقي حتى اليوم مثل هذا التعليل الكامل ، وما من أحد حاوله إلا تبقت بين يديه فقرات من الحلم – وفقرات كثيرة جداً في العادة – لا يستطيع أن يقول في أصلها حرفاً . فمن الواضح أن اهتمامات النهار – من حيث هي مصدر نفسى من مصادر الحلم – بعيدة كل البعد عن أن تكون لها هذه القيمة القصوى التي قد يتوقعها المرء إذ يسمع ما يتحدث به كل منا جازماً من انشغاله في أحلامه بأعمال نهاره .

ولكننا لا نعرف للحلم مصادر نفسية أخرى . ونتيجة ذلك هي أن كل تعليقات الحلم المضمنة فيما كتب عن هذا الموضوع – باستثناء تعليل شرزر الذي نعرض له فيما بعد [ص ١١٥ وما بعدها] – ترك فراغاً كبيراً حيثما يتعلق الأمر بتعيين منشأ الصور المتخيلة التي هي أكبر مادة تميز الحلم . وفي هذا المأزق صار أغلب الكتاب يتزعون إلى خفض نصيب العوامل النفسية من إثارة الحلم قدر الإمكان ؛ لصعوبة الاهتداء إلى هذه العوامل . نعم ، إنهم يقسمون الأحلام طبقتين رئيسيتين : أحلام ترجع إلى تنبيه عصبى وأخرى مرجعها التداعى ، وهذه الأخيرة ليس لها من مصدر سوى الاستحضار ^(١) (قونت ، ١٨٧٤ ، ٦٥٧) ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون التخلص من الشك « فيما إذا كانت هذه الأحلام تملك

(١) [استحضار ما سبقت خبرته في الماضى .]

الظهور بغير دفعة من منبه جسمي» (فوللكت ١٨٧٥ ، ١٢٧) . لا ، بل حتى إمكان الوصف يؤثر على أحلام التداعي المحض ، فيقول فوللكت (ص ١١٨) : « وأما أحلام التداعي بالمعنى الصحيح فلا تترك مجالاً للحديث عن مثل هذه النواة الراسخة [المستمدة من التنبيه الجسمي] ، بل يكون مركز الحلم نفسه واهي التماسك . فالحياة الفكرية التي لا تعرف في الحلم عامة ضابطاً من عقل أو فهم لا تجد هنا ولو تهيباً جسمياً أو نفسياً ذا أهمية نسبية يحفظ تماسكها ، وهكذا تترك لانسيابها وتلاحقها المتقلبين ولتداخلها الفوضوي فيما بينها . » ويحاول فونت أيضاً أن ينقص شأن العامل النفسي في إثارة الأحلام إذ يقول (١٨٧٤ ، ٦٥٦) : « ومن الخطأ أن تعد تهاويل الحلم هلاوس صرفة . فالأرجح هو أن معظم صور الحلم إنما هي في الحقيقة أوهام حسية ، من حيث إنها تنفرع عن الانطباعات الحسية الواهنة التي لا تخبو أبدأ في أثناء النوم . » ويعمم فيجانت هذا الرأي على جميع صور الحلم فيقول (١٨٩٣ ، ١٧) : « إن عللها الأولى منبهات حسية ، ولا ترتبط المستدعيات المستحضرة بهذه المنبهات إلا من بعد . » ويزيد تيسيه في خفض نصيب المصادر النفسية للتنبيه ، فيقول (١٨٩٨ ، ١٨٣) : « إن الأحلام ذات الأصل النفسي الخالص شيء لا وجود له » (١) ، وفي موضع آخر (ص ٦) : « إن الأفكار المشتملة عليها أحلامنا تجيء إلينا من الخارج . . . » (٢)

ولا يفوت المؤلفين الذين يتخذون موقفاً وسطاً ، مثل الفيلسوف العظيم الأثر فونت ، أن يلاحظوا أن المنبهات الجسمية والبواعث النفسية (سواء أكانت خافية أم كانت واضحة الصلة بمشاغل النهار) تعمل متآزرة في معظم الأحلام .

وسوف نعلم فيما بعد أن لغز تكوين الحلم يمكن حله بالكشف عن مصدر نفسي للتنبيه لم يتجه إليه التفكير . وإلى أن يتم ذلك لن تدهشنا المغالاة في تقدير نصيب المنبهات غير الناشئة عن الحياة النفسية في تكوين الأحلام ؛ فمثل هذه المنبهات ليست أسهل على الكشف وحسب — فضلاً عن إمكان التحقق منها بالتجريب — بل إن النظرة الجسمية إلى الحلم تنسق والزرعة الغالبة اليوم في مجال الطب النفسي أكمل اتساق . نعم إن من الحق أن الجميع يؤكد اليوم سيطرة المخ على الكائن العضوي أقوى التوكيد ، بيد أن كل ما قد

[Les rêves d'origine absolument psychique n'existent pas]

(١)

[Les pensées de nos rêves nous viennent du dehors...]

(٢)

يشتم منه أن للحياة النفسية أى استقلال عن التغييرات العضوية الممكن إثباتها بالبرهان أو أى تلقائية فى مظاهرها يثير اليوم دعر الطبيب النفسى ، كما لو كان التسليم بمثل هذه الأشياء يسترجع بالضرورة أيام فلسفة الطبيعة وأيام النظرات الميتافيزيقية فى جوهر النفس . وهذا الحذر من جانب أطباء النفس قد كان من أثره أن صارت النفس تحت الوصاية — إن جاز التعبير . فليس ينبغى اليوم أن تم خلجة من خلجاتها عن أية قدرة خاصة بها . غير أن هذا المسلك منهم إن دل على شىء فعلى قلة إيمانهم بصدق الرباط بين ما هو جسمى وما هو نفسى . فالبحث وإن أرانا اليوم أن العلة الأولى لظاهرة من الظواهر هى علة نفسية ، فتعمقه كفىل أن يوفق حيناً إلى متابعة الطريق حتى العثور على الأساس العضوى للحدث النفسى . ولكن إذا لم يكن لمعرفة اليوم منتدح عن الوقوف عند ما هو نفسى ، فهل يكون ذلك سبباً فى نبذها ؟

د

لماذا ينسى الحلم بعد اليقظة

أن الأحلام «تبتدد» فى الصباح ، هذه حقيقة صارت مضرب الأمثال . نعم إن تذكر الحلم أمر يدخل فى حيز المستطاع ؛ فما نعلم الحلم إلا بتذكره بعد الاستيقاظ ، ولكننا نشعر فى الكثير الشائع من الأحيان بأننا لم نتذكر الحلم إلا تذكراً ناقصاً وأن ما ضاع منه يربو على ما يتبقى . وفى مقدورنا فوق ذلك أن نتذكر كيف تضمحل ذكرى الحلم فى سياق النهار — وكانت لم تزل حية فى الصباح — فلا تتخلف منها سوى نبذ قليلة ضئيلة . وفى أحيان كثيرة نعلم أننا حلمنا ، دون أن نعلم بماذا حلمنا . ولقد بلغ من مدى ألفتنا بكون الأحلام عرضة للنسيان أن صرنا لا نرى تناقضاً ما فى القول بإمكانية أن يكون امرؤ قد حلم فى خلال الليل على حين أنه لا يعلم شيئاً من محتوى حلمه ولا أن حلماً قد أتى . هذا ، بينما يتفق من جهة أخرى أن تبنى الأحلام قدرة خارقة على الثبات فى الذاكرة ؛ فقد حلت أحلاماً لمرضى وقعت منذ خمسة وعشرين عاماً أو تزيد ، وأستطيع أن أذكر حلماً لى نفسى تفصل بينه وبين الآونة الحاضرة سبع وثلاثون سنة على الأقل ، وهو مع هذا لم يفقد شيئاً من نضارته فى ذاكرتى . كل هذا عجيب أشد العجب ، ولا يدنو للفهم للوهلة الأولى .

وشروميل أكثر من فصل الكلام في نسيان الأحلام . ومن الواضح أن هذا النسيان ظاهرة مركبة ؛ فشروميل لا يرجعه إلى علة مفردة بل إلى عدة من العلال .

وأول ما يذكر من هذه جميع العلال التي ينتج عنها النسيان في حياة اليقظة كذلك . فمن عاداتنا ونحن مستيقظون أن نسارع إلى نسيان عدد من الأحاسيس والمدركات يفوق الحصر ؛ إما لضعفها أو لقلة التهييج النفسى المقترن بها . وهذا عينه يصدق على الكثير من صور الحلم : فنحن ننساها لأنها أضعف من أن تحفظ في حين نحفظ ما قد يجاورها من صور أشد قوة . بيد أن عامل الشدة في ذاته لا يحتم بقاء صور الحلم . فشروميل يسلم ويسلم معه غيره من الكتاب (كالكينز) بأننا كثيراً ما ننسى صوراً من الحلم نعلم أنها كانت موفورة الحظ من الشدة ، في حين أن بين المتبقيات في الذاكرة عدداً وثيراً من صور هي إلى أن تكون ظلالات من صور أشبه ، فقيرة في قوتها الحسية . ثم إن الإنسان - حتى في يقظته - أكثر نسياناً لما يحدث مرة وأكثر حفظاً لما يمكن إدراكه تكراراً ، ومعظم صور الحلم أحداث فريدة الوقوع ^(١) ، وفي هذا ما يسوق من غير تفريق إلى نسيان الأحلام جميعها . غير أن لعله ثلاثة خطراً يفوق الذى لسابقتها بمقدار عظيم . ذلك أن الإحساسات والأفكار والخواطر وما إليها يجب - لكي يتحقق لها قدر كاف من قابلية التذكر - ألا تظل متفرقة ، بل أن تنتظم في وحدات وتآليف من نوع مناسب . فلو أنك قسمت بيتاً منظوماً قصيراً إلى كلماته ثم مزجتها ، لصعب ذكره أيما صعوبة . « فالكلمات إذا رتبت على النحو الذى ينبغى وانتظمها سياق موافق لمقتضى الحال أعانت كل منها أختها وصار لمجموعها معنى يدنو به للذاكرة ويثبت فيها زمناً طويلاً . وعلى الجملة فالكلم المفرغ من المعنى عسير الحفظ على الذاكرة شاذه ، كالمختلط المبعثر . » [شروميل ، ١٨٧٧ ، ٨٣ .] وإن الأحلام لتعوزها المعقولة ويعوزها التنسيق في معظم الأحوال ، وتآليف الحلم مجردة من الصفات التي تطوعها للتذكر ، ومآلها إذن النسيان ؛ فهي في الأغلب لا تنقضى لحظة حتى تكون قد تفرقت ببدأ . وغنى عن البيان أن هذا الكلام جميعه لا يستقيم وما يقوله رادشوك [١٨٧٩ ، ١٦٨] من أنه قد لاحظ أن أشد الأحلام غرابة هي أحسنها لصوقاً بالذاكرة .

وهناك عوامل أخرى يراها شروميل أشد أثراً بعدد في نسيان الحلم ، مرجعها العلاقة بين الحلم وحياة اليقظة . فمن الواضح للعيان أن استهداف الحلم لنسيان الشعور المستيقظ ليس

(١) إن الأحلام التي تعاود صاحبها على فترات قد لوحظت أكثر من مرة ، أنظر مجموعة شابانيكس .

إلا الوجه الآخر لحقيقة سبق الإلماع إليها [ص ٥٩] ، وهي أن الأحلام قل أن تأخذ من حياة اليقظة ذكريات منظمة ، وإنما تأخذ قطعاً من ذكريات يترعرعها الحلم من محيطها الذي يذكر فيه عادة ونحن مستيقظون . وهكذا لا تجد تأليف الحلم مكاناً في مجتمع التسلسلات النفسية التي تمتلأ بها النفس وتعوزها كل دعامة قد يستند الذكر إليها . « وعلى هذا النحو ترتفع الأبنية الحلمية من فوق أرض الحياة النفسية — إن جاز هذا التعبير — وتخلق في الفضاء النفسى مثلما تخلق سحابة لا يلبث أن يبددها أول نفس من الريح . » [شرومبل ، ١٨٧٧ ، ص ٧٨] . ويعين على ذلك أننا لا نكاد نستيقظ حتى يهجم علينا عالم الحس فيضرب نطقاً حول انتباهنا في قوة لا يستطيع الثبوت أمامها سوى القليل من صور الحلم . فهذه تدبر إذ تقبل انطباعات اليوم الوليد إدبار النجوم بريقها وضوء الشمس الطالعة .

وأخيراً لا ننسى تلك الحقيقة بين عوامل نسيان الحلم : وهي أن معظم الناس لا يعير أحلامه اهتماماً . فكل من أولى أحلامه انتباهاً حقبة ما (كأن يكون ذلك بقصد دراستها) زادت أحلامه في هذه الحقبة عليها فيما عداها — وهو ما يعنى من غير شك أن تذكره لأحلامه يزيد يسراً ويكثر مقداراً .

ويضيف بوناتيللي (على ما يرويه بنيني) عاملين آخرين إلى العوامل التي أحصاها شرومبل ، وإن كانا في الحقيقة متضمنين في هذه الأخيرة . وهذان العاملان هما : (١) أن التحول الذي يصيب الحساسية العامة بالجسم بين حالي النوم واليقظة لا يعين على الاستحضار المتبادل بينهما ، (٢) أن الترتيب المختلف الذي يخلعه الحلم على مادته الفكرية يجعل الأحلام مستحيلة الترجمة — إن جاز هذا التعبير — من وجهة نظر الشعور المستيقظ . فأما وقد اجتمعت على نسيان الحلم هذه الأسباب جميعها ، فإنما العجيب في الحقيقة — على ما يلاحظه شرومبل نفسه — هو أن تبقى الذاكرة بعد ذلك على هذا العدد الكبير منها . ثم إن ما يبذله بعض الكتاب من محاولات متكررة من أجل النص على القواعد التي يتم تذكر الأحلام وفقاً لها يعدل نوعاً من التسليم بأننا نجد أنفسنا هنا أيضاً إزاء شيء ملغز لا تعليل له . فحديثاً ألح الكتاب بحق على سمات معينة يتميز بها تذكر الأحلام : كأن نتذكر في خلال النهار شيئاً اعتقدنا نسيانه في الصباح ، ويكون تذكره هذا لأننا لمنا موضوعاً ما له بالحلم صلة عارضة (رادشوك ، تيسييه) . بيد أن تذكر الأحلام يستهدف (٦)

في جملته إلى اعتراض من شأنه أن ينقص قيمتها أمام أعين النقد نقصاً بالغاً : ذلك أنه إذا كانت ذاكرتنا تغفل من الحلم ما تغفل ، فما أدرانا أنها لا تريف ما تبقى ؟

ويعرب شتر وميل أيضاً عن هذه الشكوك في أمانة استحضار الحلم فيقول [١٨٧٧ ، ٦] :
 « وهكذا يسهل أن يدرج الشعور المستيقظ من حيث لا يدري إضافات متعددة في ذكرى الحلم ، فیهباً إلینا أننا حلمنا بأشياء من صنوف شتى ، وماحوى الحلم في الحقيقة شيئاً منها .
 ويجزم يستن بخاصة في هذا المعنى فيقول (١٨٥٥ ، ٥٤٧) :

« ولا ننسى فوق ذلك ونحن نبحث حلماً متلائم الأجزاء متنسق السياق ونفسره ؛ لا ننسى تلك الحقيقة التي لم تلق حتى الآن ، فيما أرى ، سوى القليل من العناية : وهي أننا لا نكاد نلترم الواقع في مثل هذه الحالات أبداً ؛ لأننا إذ نستحضر حلماً في أذهاننا نميل إلى سد ما بين صور الحلم من الثغرات — دون أن نلاحظ ما نحن صانعوه أو نعمد إليه . فلا يحدث إلا نادراً — أو لا يحدث أبداً — أن يكون لحلم من الترابط في الحقيقة مثل ما يلوح له في الذاكرة . ويكاد يكون محالاً ولو على أشد الناس محبة للحقيقة أن يروى حلماً خليقاً بالذكر من غير حشو أو تزويق . فتزوع العقل الإنساني إلى رؤية الأشياء يتصل بعضها ببعض نزوع غلاب حتى ليكمل في الذاكرة غير عامد ما قد يحويه حلم مفكك من نقص الترابط . »

وتقرأ هذه الملاحظات التي كتبها إيچر [١٨٩٥ ، ٤١] فتخالها ترجمة لما قرأناه ليستن وإن يكن من المؤكد أنه قد انتهى إليها مستقلاً : « . . . إن لملاحظة الأحلام صعابها الخاصة ، والوسيلة الوحيدة إلى تجنب كل خطأ في مادة هذا شأنها هي أن نودع الورق ما قد خبرناه للتو أو لاحظناه ، دون أقل إمهال . فإن لم نفعل ، لم يلبث النسيان أن يجيء سريعاً ، كاملاً أو جزئياً . والنسيان الكامل لا خطر منه ، وأما الجزئي فغادر ؛ لأننا إذ نشرع بعد ذلك في رواية ما لم ننسه ، كنا عرضة لأن نكمل بالخييلة ما تزودنا إياه الذاكرة من القصص المتنافرة المفككة . . . ، وبصير كل منا فنائاً يجهل نفسه ، ثم الرواية إذ تتكرر بين الحين والحين تنتهي بأن تفرض نفسها على تصديق مؤلفها ، فإذا هو يقدمها وهو حسن الطوية كما لو كانت واقعة صادقة استوفيت إجراءات إثباتها كما ينبغي . . . » (١) .

(١) ['...l'observation des rêves a ses difficultés spéciales et le seul moyen d'éviter toute

erreur en pareille matière est de confier au papier sans le moindre retard ce que l'on vient d'éprouver ou de remarquer; sinon, l'oubli vient vite ou total ou partiel; l'oubli total est sans gravité; mais

ويعرب شيبينا (١٨٨٢ ، ٣٣٨) عن آراء مماثلة كل المماثلة ؛ فهو يعتقد — على ما يبدو — أن عناصر الحلم الواهية الرباط لا يدخلها أى ضرب من النظام إلا حين نحاول استحضار الحلم ، فنحن « نحيل ما هو متجاور وحسب إلى متقدم ومتأخر (١) ، أى ندخل عملية من الربط المنطقي لا وجود لها في الحلم . »

ولما كان التأييد الموضوعي هو الكفيل وحده أن يثبت صدق ذاكرتنا ، وكان ذلك محالاً فيما يتصل بالأحلام وهي خبرتنا الخاصة التي لا نملك في شأنها مرجعاً آخر غير ذاكرتنا ، فأى قيمة تبقى بعد ذلك لذكري الحلم ؟

هـ

الخصائص السيكولوجية المميزة للحلم

إن دراستنا العلمية للحلم تبدأ من ذلك الفرض : أن الحلم نتاج لنشاطنا النفسي الخاص . بيد أن الحلم بعد أن ينقضى يثير العجب من أنفسنا ، كأنه شيء غريب عنا ، بلغ من قلة التزامنا بالتسليم بمسئوليتنا عنه أن صار سيان عندنا القول : « أتاني حلم » أو « حلمت حلماً » . فما أصل هذا الشعور بأن الحلم دخيل علينا ؟ إذا رجعنا إلى مناقشتنا في مصادر الأحلام ، لزم أن ننفي أن يكون هذا الشعور ناجماً عن المادة الداخلة في محتواها ؛ لأن معظم هذه المادة مشترك بين حياتي اليقظة والحلم . ومن ثم كنا نسأل : أتقع في الحلم تغييرات في عمليات النفس هي التي تحدث هذا الشعور الذي نتحدث عنه ؟ ثم نحاول بناء على ذلك أن نبتين ما هي الصفات السيكولوجية للحلم .

ما من أحد كان أقطع من فخر في توكيد الفارق الجوهرى بين حياة الحلم وحياة اليقظة ، أو استخلص من هذا الفارق مقدار ما استخلصه هو من النتائج البعيدة ،

L'oubli partiel est perfide; car si l'on se met ensuite à raconter ce que l'on n'a pas oublié, on est exposé à compléter par l'imagination les fragments incohérents et disjoints fournis par la memoire...; on devient artiste à son insu, et le récit periodiquement répété s'impose à la création de son auteur, qui, de bonne foi, le présente comme un fait authentique, dûment établi selon les bonnes methodes..."]

(١) [تعبير تشتم منه رائحة الفلسفة الكانتية حيث تتكون الخبرة المدركة بنظامها بصب المحسوس الخالص

الذى هو تبدد محض في صور الحساسة (الزمان والمكان) ومقولات الذهن (العلية ، الجوهر ، إلخ) .]

وذلك في فقرة من كتابه « عناصر علم النفس الفيزيائي » (١٨٨٩ ، ٢ ، ٥٢٠) .
فهو يرى أنه « لا مجرد انخفاض الحياة النفسية الشعورية دون عتبة النشاط السوي » ولا تراجع الانتباه عن مؤثرات العالم الخارجي يكفيان في تحليل خصائص الحياة الحاملة من حيث مباينتها للحياة اليقظة ، بل يحدس أن الأرجح هو أن مسرح الحلم غير مسرح الحياة الفكرية المستيقظة ، فيقول : « لو أن مسرح النشاط النفسي كان في أثناء النوم هو هو في اليقظة ما جاوز الحلم ، فيما أرى ، أن يكون امتداداً للحياة الفكرية المستيقظة مع بعض الانخفاض في الشدة ، وكان فوق ذلك بالضرورة يقاسم هذه الحياة مادتها وصورتها . ولكن الواقع يخالف ذلك كل المخالفة . »

ولكن ما الذي عناه فخر بجديته من هذه النقلة للنشاط النفسي من مسرح إلى آخر؟ ذلك ما لم يتضح قط ، ولا أعلم أن أحداً سلك الطريق الذي تشير إليه هذه الكلمات . فأن نؤول هذه الجملة تأويلاً تشريحياً ، بمعنى أنها تلمح إلى تحيز فيزيولوجي مخي ، أو حتى إلى الطبقات النسيجية للقشرة المخية ، ذلك — فيما أرى — ما يحق لنا أن نستبعده من غير تردد ، بيد أنه قد يتضح في المستقبل أن الفكرة حصيفة خصبة ، إذا أمكن تطبيقها بالإشارة إلى جهاز نفسي تتركب من عدة من جهات الاختصاص ، صفت كل منها وراء الأخرى . (١)

وأما سائر الكتاب فيقنعون يجذب الانتباه إلى هذه الخاصة أو تلك من الخصائص البارزة للحياة الحاملة ، متخذين إياها دعامة بيدأون منها محاولاتهم من أجل الوصول إلى تحليل أشمل للحلم .

فلو حظ ، والملاحظة صائبة ، أن بين الخصائص الرئيسة للحلم خاصة تظهر في أثناء فعل الأحذ في النوم ، بحيث يمكن وصفها بالقول : إنها ظاهرة تبشر بالنوم . فالذي يميز حالة اليقظة ، على حسب شلاير ماخر (١٨٦٢ ، ٣٥١) ، هو كون النشاط الفكري يتأدى أثناءها في تصورات مجردة لا صور . ولكن الفكر يتأدى في الحلم بوساطة الصور قبل كل شيء ، وفي مقدورنا أن نلاحظ حين يقترب منا النوم أن نشاطنا الإرادي إذ يتأى علينا أكثر فأكثر انبعثت بقدر تأييه أفكار لا إرادية ، تندرج جميعها في طبقة الصور . فالعجز عن نوع العمل الفكري الذي نشعر أننا نستهدفه استهدافاً إرادياً مع

(١) [وهي الفكرة التي ينمينا فرويد في القسم الثاني من الفصل السابع من هذا المؤلف .]

انبعاث الصور الذي يصحب عادة هذا التشتت في الانتباه خاصتان تستمران في الحلم ويحللنا التحليل السيكولوجي للأحلام على أن نرى فيهما سمتين جوهريتين من سمات الحياة الحاملة . وقد رأينا من قبل [ص ٦٩] أن هذه الصور قبل النوم لا تفرق في محتواها من صور الحلم (١) .

الحلم إذن يفكر في صور مرئية على نحو غالب ، ولكنه ليس نحواً مانعاً . فالأحلام تلجأ كذلك إلى الصور السمعية ، وقد تلجأ — وإن يكن بدرجة أقل — إلى انطباعات تنتمي إلى سائر الحواس . ثم إن الحلم كاليقظة سواء بسواء قد تعرض فيه أشياء كثيرة في صورة أفكار أو معان ليس غير (وهو ما يعنى في الراجع أنها تحضر بواسطة آثار الصور اللفظية [المحفوظة في الذاكرة]) . بيد أن الذي يميز الحلم حقيقة على الرغم من ذلك إنما هو هذه العناصر من محتواها التي تسلك مسلك الصور ، أى تلك الأشبه بالمدرجات الحسية منها بالمذكورات . وإذا تركنا جانباً جميع المناقشات التي يعرفها الأطباء النفسيون في طبيعة الهلوس ، فلن نخالف أحداً من أهل الثقة في الموضوع حين نؤكد أن الأحلام تهلوس ، أى تستبدل بالأفكار هلاوس . ولا فرق من هذه الناحية بين الصور المرئية والسمعية ؛ فقد لوحظ أن المرء إذا شرع في النوم وبرأسه ذكرى نعمة موسيقية استحوطت الذكرى إلى هلوسة موضوعها هذه النعمة عينها . فإذا استيقظ المرء ثانية تلاشت الهلوسة بدورها لتحل محلها الصور الذكورية التي هي أكثر خفوتاً ومختلفة في الوقت نفسه كيفاً ، وقد يدوم التداول بين الحالتين أكثر من مرة بينما المرء آخذ في النعاس .

بيد أن تغيير الأفكار إلى هلاوس ليس الناحية الوحيدة التي تختلف فيها الأحلام من مقابلاتها الفكرية في اليقظة . فالحلم يصوغ من هذه الصور موقفاً ، إنه يمثل حدثاً يدور أمام أعيننا ، أو كما يقول شبيتا [١٨٨٢ ، ١٤٥] : إنه يخلع صورة الحركة المسرحية على فكرة ما . ولكننا لا نقدر هذه الخاصة من خصائص الحياة الحاملة حق التقدير ، إلا حين نسلم فوق ما سلف بأننا حين نحلم لا نعتقد أننا نفكر ، بل نعتقد أننا نعيش ، أى نضيف تصديقاً تاماً إلى صور الحلم الهلوسية — أو هذا هو ما يقع عادة ، فهناك شواذ تتطلب نظراً

(١) لقد أورد سيلبرير بضمة أمثلة جميلة تبين كيف تتحول الأفكار المجردة ذاتها إلى صور مرئية متشكلة تريد الإعراب عن ذات المعنى . وسأعود إلى هذا المكتشف في موضع آخر [انظر « الظاهرة الوظيفية » في الفهرست التحليلي .]

خاصاً . وأما التعقيب الناقد ، كما يكون في قولنا : ما كنا نعيش على الإطلاق ، كل الأمر أننا كنا نفكر تفكيراً من طراز خاص أى نحلم ، فهذا ما لا يكون إلا بعد أن تحل اليقظة . وهذه الخاصة هي التي تفرق الحلم الحق من حلم اليقظة الذي لا نخلط بينه وبين الواقع أبداً .

ويجمل بورداخ ما تقدم النظر فيه من سمات الحياة الحاملة في الكلمات الآتية [١٨٣٨ ، ٥٠٢] : « ومن بين سمات الحلم الجوهرية السمات الآتية : (أ) أن نشاط النفس الذاتي يظهر في صورة موضوعية ؛ لأن ملكاتنا الإدراكية تنظر إلى نتاج تخيلتنا نظرتها إلى انطباعات حسية... ، (ب) أن النوم يعنى إبطال سلطة الذات ، ومن ثم كان الاستسلام للنوم يجلب معه قدراً من القابلية الصرفة . . . فالشرط في انبعاث الصور التي تصحب النوم هو نقصان سلطة الذات . »

ويبقى بعد ذلك أن نحاول تعليل التصديق الذي تضيفه النفس إلى هلاوس الحلم ، وهو التصديق الذي لا يظهر إلا حين ينقطع ضرب من نشاط نفسى ذى سلطان . هنا يحتج شتروميل (١٨٧٧) بأن النفس في تصديقها هذا إنما تقوم بوظيفتها على وجه صحيح يتفق وقانون عملها . فعناصر الحلم بعيدة عن أن تكون محض تصورات ، إنها خبرات نفسية ، صادقة ، فعلية ، من قبيل ما يعرض في حالة الصحو من طريق الحواس (ص ٣٤) . فبينما تصوغ النفس المستيقظة معانيها وأفكارها في صور لفظية وكلم ، إذا هي في الحلم تصوغها في صور حسية صحيحة (ص ٣٥) . ثم إن الحلم يتضمن فوق ذلك شعوراً بالمكان ؛ ففيه كما في اليقظة تنتظم الإحساسات والصور في مكان خارجي (ص ٣٦) . ولا محيد إذن عن التسليم بأن موقف النفس من صورها ومدركاتها الحسية في الأحلام لا يختلف منه وهي في اليقظة (٤٣) . فإذا كانت النفس بعد ذلك مخطئة في صنعها هذا ، فلأنها تفتقر في أثناء حالة النوم إلى المعيار الذي يمكنها وحده من التفرقة بين مدركات الحس الوافدة من الخارج وتلك المنبعثة من الداخل ، أى أنها لا تملك القدرة على امتحان صورها الحلمية بالوسائل الوحيدة الكفيلة أن تثبت حقيقتها الموضوعية . ثم هي بالإضافة إلى ذلك تغفل التفرقة بين الصور التي تملك تبديلها كما تريد وتلك التي يغيب فيها هذا التحكم : إنها على خطأ لأنها تعجز عن تطبيق قانون العلية على محتوى أحلامها (ص ٥٠ - ٥١) . وخلاصة القول هي أن انصرافها عن العالم الخارجى هو أيضاً

السبب في تصديقها عالم الأحلام الذاتي .

ويصل دلبوف إلى النتيجة ذاتها بعد محاجة سيكولوجية مختلفة بعض الاختلاف . فهو يرى أننا نعتقد أن صور الحلم موجودة حقيقة لأننا لا نملك في أثناء النوم انطباعات أخرى نقارن بها هذه الصور ، لأننا مفصولون من العالم الخارجي ، ولكنه ليس من الصحيح أننا نعتقد صدق هذه الهلاوس لأننا نعدم في النوم القدرة على امتحانها . فالحلم يستطيع أن يشبه علينا كل صنوف مثل هذا الامتحان ، كأن يجعلنا نلمس الورد التي نراها - ومع هذا فما نحن إلا حاملين . فالمعيار الأوحده المتين لكوننا نياماً أو مستيقظين ليس في رأى دلبوف سوى واقعة اليقظة نفسها - وهو معيار لا نأخذ به إلا جريباً على العرف العملي العام . فأنا أستنتج أن كل ما خبرته بين أن نمت وأن استيقظت كان وهماً حين أتيت وأنا أستيقظ أنني راقد في سريري مجرداً من ثيابي . وما أخذت صور الحلم مأخذ الحقائق في خلال النوم إلا لعادة فكرية لا تنام هي افتراضى وجود عالم خارجى أعارض به أنأى (١) .

وهكذا يرفع الانصراف عن العالم الخارجى إلى مرتبة العامل المحتم لظهور أبرز سمات الحياة الحاملة ، ومن الخلق إذن بعنائنا أن نذكر بعض ملاحظات نافذة أتاها بورداخ منذ زمن قديم ؛ لأنها تنير أمر العلاقات بين النفس النائمة والعالم الخارجى

(١) لقد حاول هافتر - مثل دلبوف - أن يفسر النشاط الحالم بالتحوّل الذى يطرا بالضرورة على أداء الجهاز النفسى لوظائفه عندما يداخل هذا الجهاز عامل غير سوى ، مع بقائه سليماً فيما عدا ذلك . إلا أنه - أعنى هافتر - يصف هذا العامل وصفاً مختلفاً بعض الاختلاف . فهو يرى أن أول أمارات الحلم هي التحرر من الزمان والمكان ، أى تحرر التخيل من الموقع الذى يشغله الفرد في النظام المكاني والزمنى . وتلقح بذلك الخاصية الأساسية الثانية للحلم ، وهي اعتبار الهلاوس والتخييلات وتآليف الخيلة مدركات موضوعية . يقول هافتر : " إن ملكاتنا النفسية العليا جميعها - وينوع خاص ملكة التجريد وملكة الحكم والاستدلال من ناحية ، وقدرة الجبر الذائق من ناحية أخرى - يصطبغ نشاطها بصور الخيلة الحسية وتكن أمثال هذه الصور دائماً من وراء هذا النشاط ولهذا كان تحرر صور الحلم من كل ضابط يصيب هذه الملكات أيضاً إلى حد ما . وأقول : ' إلى حد ما ' لأن ملكتى الحكم والإرادة في ذاتهما لا تتغيران في أثناء النوم بحال من الأحوال . فنشاطنا لا يقل ذكاءً وحرية عنه في اليقظة . فإستطيع إنسان واو في الحلم أن يخرق قوانين الفكر من حيث هي كذلك ، أى أن يقول عن الأشياء التي تلوح له متضادة : إنها واحدة ، إلخ . وهو أيضاً في الحلم لا يستطيع أن يرغب إلا فيما يتصور أنه الخير (Sub ratione boni) . ولكن قد يضل العقل الإنسانى أثناء الحلم في تطبيقه لقوانين الفكر بأن يأخذ فكرة في محل أخرى . وهكذا يقع أننا قد نفتوه في الحلم بأفصح المتناقضات ونرتكبها ، بينما قد ننتهى من جهة أخرى إلى أرجح الأحكام وأسلم النتائج ، وننتخذ أفضل القرارات وأطهرها . فإندام الاتجاه هو السر في هذا الشطط الذى تندفع إليه تخيلتنا في خلال الحلم ، كما أن الافتقار إلى التأمل النقدى وإلى التناقل مع الآخرين هو المصدر الرئيسى

لما يبديه الحلم من جموح في أحكامنا وآمالنا ورغباتنا . " (١٨٧٧ ، ١٨)

ولأنها تفيد كذلك في تحذيرنا من المغالاة في تقدير شأن النتائج المتقدم ذكرها . يقول بورداخ : « إن النوم لا يحدث إلا إذا توافر هذا الشرط : أن تكف المنبهات الحسية عن تهيج النفس ، . . . غير أن الشرط في النوم ليس غياب المنبهات بقدر غياب الاهتمام بها ^(١) ، بل الحقيقة هي أن بعض المنبهات الحسية قد يكون لازماً لتهدئة النفس : فهكذا الطحان لا يدوم نومه إلا وهو يسمع جعجعة الطاحونة ، كما أن النوم في الظلمة التامة يستحيل على من يرى أن إشعال بعض الضوء في الليل ضرورة يقتضيها الاحتياط . » (١٨٣٨ ، ٤٨٢)

« إن النفس تعزل في أثناء النوم عن العالم الخارجي وترتد عن حافتها نفسها [أى عن أعضاء الحس التي من طريقها تتصل بالعالم الخارجي] . . . بيد أن الصلة لا تنقطع كل الانقطاع ؛ فلو قد كان المرء لا يستطيع سماعاً ولا حساً في نومه وإنما يسمع ويحس بعد الاستيقاظ وحسب ، لما كان في الوسع إيقاظه على الإطلاق . وأبين دليل على استمرار الإحساس هو كوننا لا نستيقظ دائماً لما يكون عليه الانطباع من محض الشدة الحسية ، بل لصلته النفسية بنا : فالنائم لا توقظه كلمة لا تقع من نفسه موقِعاً خاصاً ، فإن ناديته باسمه أيقظته . . . أى أن النفس تميز في نومها بين مختلف الإحساسات . . . ولهذا السبب كان انقطاع أحد المنبهات كفيلاً أن يوقظ المرء ، إذا كانت لهذا الانقطاع صلة بأمر له في فكر المرء أهمية* : فيستيقظ الرجل الذى ينطوى في الليل ضوء مصباحه ، أو الطحان إذا وقفت الطاحونة ، أى إذا انقطع تنبيه حسى . وهذا يعنى أن كليهما كان يدرك هذا التنبيه ، لكن دون أن يتزعج له ؛ لأن هذا التنبيه لم يكن يحركه تحريكاً خاصاً بل كان على الأصح يطمئنه . » (ص ٤٨٥ وما يليها .)

لقد نغض الطرف عن هذه الاعتراضات — وهى ليست بالهينة — ، ولكننا نظل مع ذلك مرغبين على أن نقر بأن ما بحثناه حتى الآن من خصائص الحياة الحاملة وعزونه إلى انصرافها عن العالم الخارجى لا يوضح ما تتسم به هذه الحياة من طابع الغرابة كل التوضيح . ولولا هذا لكان من المستطاع أن نحول هلاوس الحلم من جديد إلى معان ومواقفه إلى خواطر ، وبهذا نحل مشكلة تفسير الحلم . وهذا التحويل في الحقيقة

(١) أنظر ما يسميه كلاپاريد (١٩٠٥) "désintéret" [انصراف الاهتمام] ، وهو الانصراف الذى يرى أن ميكانيكية حالة النوم تقوم فيه .

هو ما نصنع حين نستحضر حلماً من الذاكرة بعد اليقظة ، ومع هذا فسواء وفقنا في هذه الترجمة الثانية توفيقاً كلياً أم توفيقاً جزئياً ليس غير ، يظل الحلم مبقياً على إلغازه كاملاً غير منقوص .

ولذا كان المؤلفون جميعهم يفترضون من غير تردد أن المادة الفكرية لحياة اليقظة تصيبها في الحلم تغيرات أخرى أعمق غوراً . ويريد شترووبل أن يعرب عن أحد هذه التغييرات في الفقرة الآتية (١٨٧٧ ، ٢٧) : « إن النفس إذ ينقطع نشاطها الحسي وينقطع شعورها السوي بالحياة تفقد التربة التي تتأصل فيها مشاعرها ورغباتها واهتماماتها وأعمالها . ثم إن الحالات النفسية ، من مشاعر واهتمامات وأحكام تقويمية وما إلى ذلك مما لا تنفصم عراه من الصور الذكروية في حياة اليقظة ، تستهدف كذلك . . . لضغط يولد الغدوض ، يكون من نتيجته أن تنفصم صلة هذه الحالات بالصور ، كما أن الصور الإدراكية المحصّلة في حياة اليقظة عن الأشياء والأشخاص والأماكن والأحداث والأفعال تستحضر منفردات في عدد كبير ، لكن دون أن تصحبها قيمتها النفسية : إن هذه القيمة تفصل عنها . وهكذا تطوف هذه الصور في النفس كيفما يحلو لها . . . »

وفي رأى شترووبل أن تجريد الصور من قيمتها النفسية (وهو ما يرجع بدوره إلى واقعة الانفصال من العالم الخارجي) يشارك بنصيب رئيس في خلق شعور الغرابة الذي يميز الحلم من الحياة الواقعة في ذاكرتنا .

ولقد سمعنا من قبل [ص ٨٤] أننا ما أن نستسلم للنوم حتى ننزّل عن وجه من وجوه نشاطنا النفسي ، وأعني به القدرة على توجيه مجرى أفكارنا توجيهاً إرادياً . فلم لا نسمع الآن فرضاً آخر وهو على أية حال فرض قريب من الذهن بطبيعته : أن آثار النوم تنتشر فتشمل ملكات النفس جميعاً؟ ويبدو أن بعض هذه الملكات يعطل كل التعطيل ، وعلى ذلك نسأل : هل تظل سائر الملكات بعدئذ على نشاطها السوي؟ أهى مستطبعة أن تعمل عملاً سوياً في مثل هذه الملابس؟ وهنا قد يخطر لنا أن نعزل السمات المميزة للحلم بنقص النشاط النفسي في أثناء النوم ، ويحيى الانطباع الذي يتركه الحلم في نفوسنا حين نستيقظ ونحكم بملكة مستيقظة فيقرنا على هذا الخاطر : فالحلم مفكك ، لا يجد غضاضة في قبول المتناقضات مهما عظمت ، وأما المستحيلات فحبها مرسل على غاربه ، وأما المعرفة التي نعلق عليها أكبر الأهمية في النهار فتغفل إغفالاً ، ثم هو - أعني الحلم - يظهرنا في

مظهر البلهاء آداباً وخلقاً ، ولو أن أحداً سلك مستيقظاً مسلكه في تصوير الحلم لظن به مسا ، ولو أن أحداً تحدث مستيقظاً على نحو ما يتحدث الناس في أحلامهم ، أو أفاض بنوع الأشياء التي تعرض له في الحلم ، لخلناه مختلط الفكر أو ضعيف العقل ؛ فلا يبدو أننا نجاوز تسجيل الحقيقة حين نعرب عن أضال التقدير لنشاط النفس في الحلم وحين نقول : إن ملكاتنا العقلية - وما علا منها مرتبة بنوع خاص - تعطل في الحلم تعطيلاً ، أو على الأقل يدركها خلل بليغ .

وقل أن اتفق المؤلفون في شيء اتفقهم على مثل هذا النوع من الأحكام في صدد الحلم - وأعرض لمن شذ منهم فيما بعد [ص ٩٤ وما يليها] - وإن هذه الأحكام لتسوقهم بدورها إلى نظرية معينة أو إلى تعليل معين للحياة الحاملة . ولكن ينبغي على الآن أن أترك التلخيص مورداً بدله طائفة من النصوص لكتاب مختلفين - فلاسفة وأطباء - في موضوع الخصائص السيكولوجية للحلم .

ففي رأى لوموان أن الخاصة الجوهرية الوحيدة للأحلام هي فقدان التناسق بين صورها . ويؤيده موري فيقول (١٨٧٨ ، ١٦٣) : « لا وجود لحلم لا يجاب المعقول بعض المجانبية ، أو لا تضم أعطافه بعضاً من التنافر أو من الخلط الزمني أو من فساد المنطق ^(١) . » ويرى هجل - على ما يرويه شبيتا - أن الأحلام تخلو من كل تناسق موضوعي معقول .

ويقول دوجا : « الحلم هو الفوضى النفسية ، وجدانية وعقلية ، هو لعب الوظائف وقد أسلم لها حبلها ، ممارسة عملها من غير ضابط ولا هدف ؛ فالذهن يسمى في الحلم آلة ذهنية . » ^(٢)

ويتحدث فولككت نفسه - وهو البعيد عن أن تجرد نظريته النشاط النفسي المبذول في أثناء النوم من الغاية - يتحدث (ص ١٤) عن « الاسترخاء والتفكك والاختلاط التي تصيب الحياة الفكرية ، بعد ترابطها في خلال اليقظة بفعل القوة المنطقية للأنا المركزي . »

(١) ["Il n'y a pas des rêves absolument raisonnables et qui ne contiennent quelque incohérence, quelque anachronisme, quelque absurdité."]

(٢) ["Le rêve c'est l'anarchie psychique, affective et mentale, c'est le jeu des fonctions livrées à elles-même et s'exerçant sans contrôle et sans but; dans le rêve l'esprit est un automate spirituel."]

وأما فساد منطق الروابط التي تربط بين المستدعيات الواردة في الحلم ، فلا يكاد أحد يفضحه بمثل قوة شيشرون في الكتاب الآنف الذكر (الكتاب الثاني [فقرة ٧١] : « من المحال أن نتخيل شيئاً بلغ من الانعكاس والفوضى والشذوذ مبلغاً يعجزنا عن الحلم به »^(١)) ويقول فختز : (١٨٨٩ ، ٢ ، ٥٢٢) « كأن النشاط السيكولوجي قد نقل من مخ رجل عاقل إلى مخ مجنون » .

ويقول رادشوك (١٨٧٩ ، ١٤٥) : « الواقع أنه يبدو أمراً مستحيلاً أن نتميز أى قانون ثابت ينهج عليه هذا النشاط الملتاث . فالأحلام إذ تفلت من الحراسة الصارمة التي تقيّمها الإرادة العاقلة وقيمها الانتباه على مجرى الأفكار المستيقظة تندفع في دوامة جنونية من الخلط الكاليدوسكوبي . »

ويقول هيلد برانت (١٨٧٥ ، ٤٥) : « أى قفزات عجيبة لا يأتيها الحلم حين يستدل مثلاً ؟ بأى خفة يشهد أكثر دروس التجربة ألفة وهي تنقلب رأساً على عقب ؟ أى متناقضات مضحكة يجيزها في نظم الطبيعة والمجتمع قبل أن يتجاوز الأمر حدود النكته — كما نقول — فإذا إغراقه في المتر يوقظه . فنحن نحسب أن ثلاثة أضعاف الثلاثة تعدل العشرين دون أن نحرك ساكناً ، ولا يدهشنا أن يستشهد كاب بيت من الشعر أو أن يمشی ميت إلى قبره بقدميه أو أن تسبح صحرة على وجه الماء . ولقد توجه والوقار يحف بنا في بعثة خطيرة إلى دوقيه برنبورج أو أمارة ليختنشتاين لنستعرض أسطولها البحري ، أو نتطوع تحت لواء شارل الثاني عشر قبيل موقعة بولتافا . »

ويتحدث بنتس ونصب عينيه نظرية الحلم المقامة على أمثال هذه الآراء فيقول (١٨٧٨ ، ٣٣) : « بين كل عشرة أحلام تسعة على الأقل لا معنى لها . فنحن نربط في الحلم بين أناس وأشياء لا تحمل أقل صلة فيما بينها ، ثم ينقلب المنظر في لمح البصر كما في الكاليدوسكوب فإذا نحن أمام مجموعة أخرى أفرغ معنى وأشد جنوناً — إن أمكن — من سابقها . وهكذا يمضي الذهن النائم — ليس كل النوم — في لعبه المتقارب ، إلى أن نستيقظ فنقرع جباهنا ونسأل أنفسنا : ألا نزال نملك القدرة على الإتيان بأفكار وخواطر معقولة . »
وأما موري فيأتي في صدد العلاقة بين صور الحلم والأفكار المستيقظة بمقارنة سوف يرى فيها الأطباء بلاغة خاصة ، إذ يقول (١٨٧٨ ، ٥٠) : « إن إحداث هذه الصور التي

(١) [“Nihil tam praepostere, tam incondite, tam monstruose cogitari potest, quod non possimus somnari.”]

تولدها الإرادة في أغلب الأحيان عند الإنسان المستيقظ ، هو من الذكاء كالحركات التي يطالعنا بها الرقاص والاضطرابات الشللية بالنسبة إلى القدرة الحركية . . . » (١) وأما فيما خلا ذلك ، فالحلم عنده : « سلسلة مكتملة من درجات الانحطاط في الملكة العاقلة المستدلة . » (٢) (ص ٢٧) .

ولا تكاد تكون ثم حاجة إلى ذكر أقوال الكتاب الذين يكررون قضية موري مطبقة على مختلف الوظائف النفسية ذات المرتبة العالية .

ففي رأى شترومبل (١٨٧٧ ، ٢٦) أن جميع العمليات المنطقية القائمة على النسب والعلاقات يصيها الخسوف في الحلم — ومن المفهوم أن هذا الرأى يظل صحيحاً وإن لم تتجل في الحلم مجانبة صريحة للمعقول . ويرى شبيتا (١٨٢ ، ١٤٨) أن الأفكار التي ترد في الحلم تبدو مستقلة كل الاستقلال عن قانون العلية . ويلج رادشوك وغيره على ما يميز الحلم من ضعف ملكتي الحكم والاستدلال . وفي رأى يودل (١٨٩٦ ، ١٢٣) أن الأحلام مجردة من ملكة النقد ، من القدرة على تصحيح مجموعة من المدركات الحسية بالرجوع إلى محتوى الشعور في جملته . ويقول هذا المؤلف عينه : « إن جميع أنواع النشاط الشعوري تجيء في الحلم ، لكنها تجيء ناقصة ، مكفوفة ، معزولة . » وأما المتناقضات التي يغرق فيها الحلم بالقياس إلى معرفتنا المستيقظة فيعللها شتريكر (مع الكثيرين من غيره) بنسياننا الحقائق في الحلم أو باختفاء العلاقات المنطقية (١٨٧٩ ، ٩٨) ، إلى آخر كل هذا .

غير أن الكتاب الذين ينظرون على الجملة هذه النظرة القاسية إلى الوظائف النفسية في الحلم ، يقرون للأحلام مع ذلك ببقية باقية من النشاط النفسى ، وبهذا يسلم صراحة فونت الذى كان لنظرياته أثر حاسم في كثير من المشتغلين بهذا الموضوع . وقد يسأل سائل : وما طبيعة هذه البقية المستمرة في الحلم من النشاط النفسى السوى ؟ هناك اتفاق شامل أو يكاد على أن الملكة المستحضرة — أعنى الذاكرة — هى أقل الملكات تأثراً ، بل هى تبدى في الحلم بعضاً من التفوق على نفسها في اليقظة (أنظر ما سبق في ص ٥١ وما يليها) ، وإن بدا أن جزءاً من متناقضات الحياة الحاملة يرجع إلى نسيانها . وفي رأى شبيتا أن جزء

[“La production de ces images que chez l’homme éveillé fait le plus souvent naître la volonté, correspond, pour l’intelligence, à ce que sont pour la motilité certains mouvements que nous offrent la chorée et les affections paralytiques...”]

[“Toute une série de dégradations de la faculté pensante et raisonnante”] (٢)

النفس الذى لا يؤثر فيه النوم هو الحياة الوجدانية ، وهذه إذن هى الموجهة للحلم . وهو يعنى بلفظ « الوجدان » (١) « المشاعر فى مجموعها الثابت ، من حيث هو الماهية الباطنة العميقة للكائن الإنسانى » (١٨٨٢ ، ٨٤) .

ويلمح شولتس (١٨٩٣ ، ٣٧) فى الأحلام نشاطاً نفسياً يتجلى فى التزوع إلى تفسير مادة الحلم « تفسيراً استعارياً » . وكذلك زييك (١٨٧٧ ، ١١) فهو يشاهد فى الحلم « ملكة التفسير التكميلى » التى تمارسها النفس إزاء جميع إحساساتها وإدراكاتها . وأما الوظيفة النفسية التى تدل الظواهر على أنها أعلى الوظائف منزلة – وأعنى الشعور – فينطوى تقدير شأنها بالنسبة إلى الحلم على صعوبة خاصة . فلا شك فى أن الشعور يبقى فى الحلم ؛ فكل معرفتنا بالحلم إنما هى مستمدة منه ، ومع هذا يرى شبيتا أن الذى يدوم فى الحلم إنما هو الشعور وليس الشعور بالذات . بيد أن دلبوف يعترف بأنه عاجز عن أن يفقه شيئاً من هذه التفرقة .

وتصدق قوانين التداعى التى تحكم تعاقب الأفكار على صور الحلم كذلك ، بل إن سيطرتها لتتجلى فى الحلم أشد قوة ووضوحاً . ويقول شترومبل (١٨٧٧ ، ٧٠) : « والظاهر هو أن الأحلام تجرى مجراها إما وفق قوانين الأفكار الخالصة ، وإما وفق قوانين المنبهات العضوية المصحوبة بأمثال هذه الأفكار ، أى دون أن يكون للتدبير أو الفهم أو الذوق الجمالى أو الحكم الخلقى أى أثر فيها . » والمؤلفون الذين أسوق آراءهم يتصورون عملية تكوين الحلم على نحو قريب من النحو الآتى : إن المنبهات الحسية المتولدة من مختلف المصادر التى سبق أن أحصيتها [أنظر قسم ج] تثير مجتمعة عدداً من الأفكار فى النفس ، فتصور هذه الأفكار فى صورة هلاوس (والأصح فى رأى فونت هو أن نقول : فى صورة أوهام حسية ؛ نظراً لتفرعها عن منبهات خارجية وباطنية) وترتبط هذه الأفكار فيما بينها على حسب قوانين التداعى المعروفة ، ثم هى تستدعى طائفة أخرى من الأفكار (أو الصور) على حسب ذات القوانين ، وعندئذ يعمل الجزء الباقى على نشاطه من ملكات النفس المنظمة المفكرة عمله فى هذه المادة جميعها بقدر مطاوعتها (أنظر على سبيل المثال فونت وفيجانت) . ولكن ما من أحد وفق بعدد إلى تبيان ما هى الدوافع التى تجعل استدعاء الصور غير الناشئة من الخارج يجرى وفق هذا القانون من قوانين التداعى أو ذلك .

بيد أن ثمت أمراً كثرت ملاحظته : وهو أن الروابط التي تصل بين صور الحلم هي روابط من نوع فريد على الإطلاق ، تختلف من تلك التي تعمل في الفكر المستيقظ . فيقول فولكيت (ص ١٥) : « إن المستدعيات تتلاحق في الحلم وتتلامس وفق أوجه من الشبه عارضة وروابط تكاد تدق على الإدراك . ولا يخلو حلم من أمثال هذه المستدعيات المتراحية الواهنة . » ويعلق موري أهمية قصوى على هذه السمة التي تميز ترابط الأفكار في الحلم ؛ لأنها تمكنه من المماثلة بين الحياة الحاملة وبعض الاضطرابات العصبية . فهو يقول بسمتين رئيسيتين تميزان « الهذيان » : (١) نشاط النفس نشاطاً تلقائياً أشبه بالآلى ، (٢) تداعى الأفكار تداعياً فاسداً غير منتظم^(١) (١٨٧٨ ، ١٢٦) . ويضرب موري نفسه مثالين ممتازين من أحلامه كان مجرد التماثل الصوتي واسطة الربط بين صور الحلم فيهما . فقد رأى في الحلم مرة أنه في حج (پلريناج) إلى القدس أو مكة ، ثم بعد مغامرات متعددة رأى نفسه يزور الكيميائي پلتيه الذي سلمه - بعد أن تحدث إليه قليلاً - مجرقة (پل) من الزنك انقلبت في جزء تال من الحلم سيقاً مصفحاً (ص ١٣٧) . ورأى في حلم آخر أنه يسير في طريق ممتد وهو يقرأ أرقام الكيلومترات الدالة على المسافات ، ثم بعد ذلك صار في دكان يقال رأى فيه ميزاناً ضخماً ورجلاً يضع في إحدى كفتي الميزان موازين كيلو جرامية لكي يزن موري ، ثم قال له البقال : « إنك لست في باريس بل في جزيرة جيلولو » وأعقبت ذلك مناظر أخرى رأى فيها أزهار لوبليا ثم الجنرال لوبيز - وكان قد قرأ نبأ موته منذ زمن قريب - ، وأخيراً استيقظ من نومه يبينا كان يلعب اللعبة المسماة لوتو (٢) .

ولكننا لن نفاجأ بالطبع إذا وجدنا أن هذا التقدير الضئيل لنشاط الحلم النفسى لم يترك بغير معارضة . ولا شك في أن المعارضة لا تبدو هنا بالشئء الهين . فلا وزن لأن يؤكد أحد محقري الأحلام (شبيتا ، ١٨٨٢ ، ١١٨) أن ذات القوانين التي تهيمن على حياة اليقظة تصدق على الحلم كذلك ، أو إذا أعلن آخر (دوجا) « أن الحلم لا يخالف العقل ، بل هو لا يخلو منه كل الخلو » (٣) ، ما دام لا يتكلفان عناء التوفيق بين مثل هذه الأقوال

(١) (1) "délire" : (1) une action spontanée et comme automatique de l'esprit; (2) une association vicieuse et irrégulière des idées.]

(٢) سوف نفهم فيما بعد [ص ٢٣٥ في الهامش] معنى أمثال هذه الأحلام الحافلة بالجناس أو بالكلمات المبتدئة بحروف مماثلة .

["le rêve n'est pas déraison ni même irraison pure".]

(٣)

وبين ما سبق أن قدماه عن فوضى الحياة النفسية في الحلم وتفكك جميع الوظائف العقلية في خلاله . ولكن ثمت فريقاً آخر من المؤلفين يبدو أنهم قد لمحو أن الحلم ربما كان له في جنونه منهج ، وأن هذا الجنون قد لا يعدو أن يكون قناعاً ، مثلما كان من أمر الأمير الدانمركي [هاملت] الذي أطلق على جنونه هذا الحكم الثاقب . ولا بد أن هؤلاء المؤلفين قد تجنبوا الحكم على الحلم بحسب ظاهره أو يكون الحلم قد طالعهم بظاهر مختلف جداً .

فعلى هذا النحو يتحدث هافلوك إليس عن الأحلام دون أن يتوقف طويلاً عند مظهر مجانبها للمعقول فيقول : إنها « عالم أثيرى من الانفعالات المبهمة والأفكار الناقصة » (١) ، عالم قد تكشف لنا دراسته عن المراحل البدائية لتطور الحياة النفسية . ويعرب ج . سوللي (١٨٩٣ ، ٣٦٢) عن هذا الرأي نفسه على نحو أشد بعد شمولاً ونفاذاً ، وإن كلماته تستحق المزيد من انتباهنا إذا تذكرنا أنه ربما كان أرسخ السيكولوجيين اقتناعاً بأن للأحلام معنى دفيناً ، يقول : « وأحلامنا وسيلة تحفظ بها هذه الشخصيات المتعاقبة (القديمية) ؛ فنحن حين نكون نياماً نرجع إلى طرائقنا القديمية في النظر إلى الأشياء والتأثر

بها ، إلى اندفاعات وضروب من النشاط كانت تسيطر علينا منذ زمن قديم . » (٢) ويقول مفكر مثل دلبوف— وإن لم يستند رأيه إلى كبير حق لأنه لم يفند الوقائع التي تناقضه — : « إن جميع ملكات النفس فيما خلا الإدراك الحسى : الذكاء والخيلة والذاكرة والإرادة والخلق ، تبقى في خلال النوم هي هي في جوهرها ، كل الأمر أنها تطبق على موضوعات متخيلة لا ثبات فيها . فالحالم ممثل يظهر كيف يشاء : مجنوناً وعاقلاً ، جلاباً وضحياً ، قزماً وعملاقاً ، شيطاناً وملاكاً . » (٣) (١٨٨٥ ، ٢٢٢) ويبدو أن أشد من عارض الانتقاص من النشاط النفسى في الحلم هو الماركى درفاى الذى جادله مورى جدالاً مستحراً والذى ذهب كل جهودى من أجل العثور على كتابه عبثاً . فورى يحدثنا عنه قائلاً (١٨٧٨ ، ص ١٩) : « إن الماركى درفاى ينسب إلى الذكاء وهو نائم حرية غير منقوصة

[“an archaic world of vast emotions and imperfect thoughts”.] (١)

[“Now our dreams are a means of conserving these successive personalities. When asleep we go back to the old ways of looking at things and feeling about them, to impulses and activities which long ago dominated us”.] (٢)

[“Dans le sommeil, hormis la perception, toutes les facultés de l'esprit, intelligence, imagination, mémoire, volonté, moralité, restent intactes dans leur essence; seulement, elles s'appliquent à des objets imaginaires et mobiles. Le songeur est un acteur qui joue à volonté les fous et les sages, les bourreaux et les victimes, les nains et les géants, les demons et les anges”.] (٣)

في العمل والانتباه ، وهو يبدو كأنما كان من رأيه أن النوم لا يقوم إلا في إطباق الجواس ، في إيصاها دون العالم الخارجي ، بحيث لا يكاد يتميز الإنسان النائم على حسب نظرتة من هذا الذي يسرح فكره وقد سد منافذ حواسه . وكل الفرق الذي يفصل عندئذ بين التفكير المألوف وتفكير النائم هو أن الفكرة تتخذ عند هذا الأخير شكلا مرئياً موضوعياً وتشبه الإحساس المتعين بالموضوعات الخارجية حتى لنخلط بينهما ، وتستعير الذكرى مظهر الواقعة الحاضرة . « (١) »

بيد أن مورى يضيف إلى ذلك قوله : « إن ثمت فرقاً فوق ذلك وفرقاً له كل الخطورة ، وأعنى به أن الملكات العقلية للنائم لا تبدى التوازن الذي تلتزمه عند المستيقظ . » (٢) فإذا رجعنا إلى فاشيد الذي ينقل إلينا صورة أوفى عن كتاب درفاى ، وجدنا نصاً لهذا المؤلف يعرب فيه عن رأيه في مجرد ظاهرة الحلم من التناسق على النحو الآتى : « صورة الحلم نسخة الفكرة ؛ فالجوهرى هو الفكرة ، وأما الرؤيا فلباس عارض . وإذا كان الأمر كذلك ، لزم أن نعرف كيف نتتبع سير الأفكار ، لزم أن نعرف كيف نحلل نسيج الحلم : حينئذ يصير اللاتناسق شيئاً مفهوماً ، وتصير أشد الأحلام إغراباً في الخيال وقائع لا تعقيد فيها ولا خلل في منطقتها » (١٩١١ ، ١٤٦) . ثم يقول (ص ١٤٧) : « وإن أكثر الأحلام غرابة لتلقى تعليلاً كأكثر ما يكون منطقاً ، إذا عرفنا كيف نحللها » ولقد نبه شتاركة إلى مؤلف أقدم عهداً ، لم أكن أعلم من أمره شيئاً ، عال خلو الحلم من التناسق تعليلاً مماثلاً في عام ١٧٩٩ ، هذا المؤلف هو فولف دافيدسون ، يقول (١٧٩٩ ، ١٣٦) : « إن القفزات الغريبة التى تقفزها أفكارنا في الحلم تستند جميعها إلى قانون التداعى . غير أنه يحدث أحياناً أن تخطر هذه الروابط للنفس على نحو غامض

(١) ["M. le Marquis d'Hervey prête à l'intelligence durant le sommeil, toute sa liberté

d'action et d'attention et il ne semble faire consister le sommeil que dans l'occlusion des sens, dans leur fermeture au monde intérieur; en sorte que l'homme qui dort ne se distingue guère, selon samanière de voir, de l'homme qui laisse vaguer sa pensée en se bouchant les sens ; toute la différence qui sépare alors la pensée ordinaire de celle du dormeur, c'est que, chez celui-ci, l'idée prend une forme visible, objective et ressemble, à s'y méprendre, à la sensation déterminée par les objets entérieurs; le souvenir revêt l'apparence du fait présent."]

(٢) ["Qu'il y a une différence de plus et capitale à savoir que les facultés intellectuels de l'homme endormi n'offrent pas l'équilibre qu'elles gardent chez l'homme éveillé."]

(٣) ["L'image du rêve est la copie de l'idée; la vision n'est qu'accessoire. Ceci établi, il faut savoir suivre la marche des idées, il faut savoir analyser le tissu des rêves ; l'incohérence devient alors compréhensible, les conceptions les plus fantasques deviennent des faits simples et parfaitement logiques."]

جداً ، بحيث يهيا إلينا أننا نشهد قفزة من قفزات الفكر وليس في الحقيقة شئاً من ذلك . « وهكذا يتفاوت تقويم الحلم من حيث هو نتاج نفسى متفاوتاً واسع النطاق في مختلف المؤلفات : فمن أقصى التحقير الذى رأينا صنوفاً من العبارة عنه ، إلى إلماع إلى قيمة لم تُفحص ، إلى أقصى الإطناب الذى يقدم الحلم على وظائف حياة اليقظة جميعاً . ومن هذين الطرفين المتقابلين يؤلف هيلد برانت ثالثة المتناقضات الثلاث التى رأينا [فى ص ٤٩] أنه يجمل فيها الخصائص السيكولوجية للحياة الحاملة ، يقول (١٨٧٥ ، ١٩) : « وثالثة المتناقضات تقوم في اشتداد الحياة النفسية والسموبها سموماً يبلغ حد المهارة المعجزة ، من جهة ، ونقص وضعف كثيراً ما يهبطان بها دون المستوى الإنسانى من جهة أخرى .

«إليك الوجه الأول : من ذا الذى لا يجد في خبرته ما يؤيد أن عبقرية الحلم تبدى أحياناً - فيما تخلق وتحكى - عمقاً في الوجدان وصدقاً ، ورقة في الإحساس ، ووضوحاً في النظر ، ودقة في الملاحظة ، وتوقدً في القرينة ، يحملنا التواضع على أن نقر بأننا لا نتسم بمثلها دائماً في يقظتنا ؟ فللحلم شاعرية تبهير ، وتمثيل محكم ، وفكاهة لا تجارى ، وسخرية مستملحة . إنه ينظر إلى العالم في ضوء يضئ عليه مثالية فريدة ، وكثيراً ما يُعلئ الأثر الذى لمجاله يفهم عميق لماهيته . الجمال الدينوى يمثله لناظرنا في بهاء سماوى ، وما سما خلع عليه أرفع حلل الجلال ، وأما ما نعهد منه الخفاقة فيتخذ أشكاله ، وأما الدعابة فتقلب مجوناً يدفع إلى ضحك جارف لا يوصف . ولقد نستيقظ وخبرة من هذا القبيل لا تزال تستحوذ علينا ، فلا نملك إلا أن نحدث النفس : بمثل هذا ما أتتنا دنيا الواقع قط . «

وللمرء أن يسأل بعد ذلك : أهو ذات الموضوع يلتقى هاته الملاحظات المحترمة وهذا المديح المتقد ؟ ألا يكون أن بعض الكتاب قد أغفل الأحلام فاسدة المنطق على حين أغفل البعض الآخر عميقها ومستدقها ؟ وإذا كان كلا النوعين يقع - ما استحق هذا الحكم وما استحق ذاك - أفلا يكون من العبث أن نلتمس للحلم خاصة تميزه ، ألا يكفى القول : كل شئء ممكن في الحلم ، من انحطاط الحياة النفسية إلى أسفل درك ، إلى سمو قل أن نفوقه في حياة اليقظة ؟ إن هذا الحل مهما كان من يسره وتيسيره يلتقى دونه تلك الحقيقة : وهى أن جهود بحثة الحلم جميعاً تبدو مقامة على إيمانهم بأن ثمت بالفعل خاصة كهذه ، تصدق في ملامحها الجوهرية صدقاً شاملاً ، ومن شأنها أن ترفع هذه المتناقضات .

ولا جدال في أن الوظائف النفسية للحلم كانت تلاقى قبولاً أسرع وأحسن في تلك الفترة

العقلية التي تجثم اليوم وراعنا ، حين كانت الفلسفة هي المسيطرة على العقول وليس العلم المضبوط . فأن يقول قائل مثل شوبرت بأن الحلم خلاص للروح من قسر الطبيعة الخارجية ، تحرير للنفس من أغلال الحس ، إلى مثل هذا من أحكام فيخته الصغير وغيره (١) مما يصور جميعه الحلم في صورة سمو بالحياة النفسية إلى درجة أعلى ، أمر يبدو لنا اليوم فوق التصور أو يكاد ، وليس يردده في زماننا إلا المتصوفة والتقويون (٢) . فإن الأسلوب العلمي في التفكير قد جلب معه انقلاباً في تقويم الأحلام . فالمؤلفون الأطباء على التحديد هم أجنح الكتاب إلى وصم النشاط النفسى في الحلم بالتفاهة والتجرد من القيمة ، على حين أن الفلاسفة والملاحظين غير المحترفين - هواة السيكولوجيين - ممن لا يستهان بمددهم في هذا المجال بالذات ، قد ثبتوا بوجه عام على الأخذ بقيمة الحلم النفسية ، وهم في ذلك أكثر اتفاقاً والإحساس الشعبي . ونفهم أن من نزع إلى حط قيمة النفس في الحلم يؤثر مصادر التنبيه الجسمية عند تعليله للأحلام ، وأما من يترك للنفس الحاملة الجزء الأعظم من ملكاتها المستيقظة ، فلا يحتاج بالطبع إلى أن ينكر أن فعل الحلم قد تكون له أيضاً مہيجاته النفسية القائمة بذاتها .

والذاكرة هي أظهر الملكات العالية المرتبة التي يمكن أن يغرى المرء بإضافتها إلى الحياة الحاملة حتى بعد المقارنة المترنة ، وسبق أن فصلنا الكلام فيما يثبت ذلك من خبرات لا يندر وقوعها . وميزة أخرى للحياة الحاملة كثيراً ما أشاد بها الكتاب الأقدمون ، هي سموها فوق فواصل الزمان والمكان . بيد أن من السهل أن نبين أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون وهماً ؛ فهذه المزية - كما يلاحظ هيلد برانت - مزية موهومة ، لأن فعل الحلم إنما يسمو على الزمان والمكان مثلما يفعل التفكير المستيقظ سواء بسواء ، ولذات السبب : وأعنى به أن هذا الفعل ليس إلا صورة من صور التفكير . ولقد نسبت إلى الحياة الحاملة مزية أخرى تتصل بالزمن ، هي استقلاله عن جريانه بمعنى آخر : فحلم كالذى روينا لمورى في صفحة ٦٤ بإعدامه بالمقصلة ، يبدو شاهداً على أن في مقدور الحلم أن يحشد في برهة من الدهن قصيرة غاية القصر محتوى إدراكياً يزيد كثيراً على ما يطبق تفكيرنا المستيقظ معالجته . بيد أن هذه

(١) أنظر هافنر وشبيتا .

(٢) [هامش أضيف سنة ١٩١٤ :] لقد قال الصوفى الموهوب دوهرل ، وهو أحد المؤلفين القلائل الذين أورد أن أعرب عن أسنى على إهمال إياهم في الطبقات السابقة لهذا الكتاب : إن الحلم ، لا حياة اليقظة ، هو المدخل إلى الميتافيزيقا ، بقدر ما يتعلق الأمر بالإنسان (١٨٨٥ ، ٥٩٢) .

النتيجة قد قامت عليها حجج شتى ، ومنذ مقالات لولوران وإيجير عن « الديمومة الظاهرة للأحلام » وهذا الموضوع مثار مناقشة طويلة ، ممتعة ، لم تنته بعدُ على الراجح إلى التعليل الأخير لهذه المسألة الدقيقة العميقة المضمون (١) .

وأما قدرة الأحلام على متابعة شواغل النهار العقلية والمضى بها إلى نتائج تعذر بلوغها في أثنائها ، قدرتها على أن تجلو شكوكاً ومشكلات وعلى أن تكون مصدر إلهام جديد للشعراء والمؤلفين الموسيقيين ، فهذا ما يبدو أمراً لا منازعة فيه بعد الرويات المتعددة وبعد الأمثلة التي جمعها شابانيكس . بيد أن الواقعة - وإن ارتفع الجدل في شأنها - لا يزال يستهدف مفهومها لشكوك شتى تتناول المبادئ ذاتها (٢) .

وأخيراً فإذ يقال عن قوة الأحلام عن الإنباء بالغيب موضع لتزاع تُقابل فيه اعتبارات لا يكاد يكون لها دفع بتوكيدات عنيدة معادة . ولا شك في أننا نحسن صنماً إذا تجنبنا إنكار كل سند من الواقع لهذا الرأي ؛ فقد نوفق عما قريب إلى تعليل سيكولوجي طبيعي لطائفة من الحالات .

و

الحاسة الخلقية في الحلم

لقد فصلت عن موضوع سيكولوجية الحلم تلك المشكلة الجزئية: هل تمتد الاستعدادات والمشاعر الخلقية إلى الحياة الحاملة ، وإلى أي مدى ؟ وذلك لأسباب لن نتضح إلا بعد الإحاطة بمباحثي . وهنا أيضاً سوف نجدنا من جديد أمام ذلك التناقض الذي عجبنا له من غير شك في حديث المؤلفين عن كافة الوظائف النفسية الأخرى في الحلم ؛ فيؤكد كتاب أن الحلم لا يعرف التزامات الخلق ، وبمثل ثقتهم يؤكد كتاب آخرون أن خلق المرء يدوم في حياته الحاملة .

فإن احتكمنا إلى خبرتنا المألوفة بالإحلام ، بدا أنها تؤيد أول هذين الرأيين تأييداً لا يرق بعده شك . يقول يستن (١٨٥٥ ، ٥٥٣) : « إنا لا نصير في الحلم أحسن أو

(١) يجد القارئ مراجع أخرى ومناقشة نقدية لهذه المسائل في رسالة تويوولسكا الباريسية (١٩٠٠) .

(٢) أنظر النقد الوارد في كتاب هـ . إليس (١٩١١ ، ٢٦٨) .

أفضل ، بل على العكس يبدو الضمير في الحلم أخرس ، فلا يستشعر المرء أثراً من شفقة ، ولقد يرتكب أقبح الجرائم ، فيسرق ويغتصب ويقتل ، دون أن يكثرث أقل اكتراث لما هو فاعله ودون أن يلحقه الندم . »

ويقول رادشتوك (١٨٧٩ ، ١٤٦) : « ولا ننسى أن الحلم تخطر فيه المستدعيات وتتصل الأفكار دون أقل التفات إلى التدبير أو العقل أو الذوق الجمالي أو الحكم الخلقى . فلكة الحكم ضعيفة غاية الضعف والانصراف عن القيم الخلقية هو الغالب . »

ويقول فوللكت (١٨٧٥ ، ٢٣) : « الأحلام - كما نعلم جميعاً - مطلقة الجراح فما يتصل بالأمور الجنسية بنوع خاص . فالحلم تغيب عنده كل قطرة من الحياء ويهجره كل شعور أو حكم خلقي ، ثم هو فيما يتعلق بالآخرين كذلك يراهم جميعاً - لا يستثنى منهم أولئك الذين يكن لهم أعمق الاحترام - في أحوال يرتاع في يقظته من التقريب بينهم وبينها ولو بالفكر . »

وعلى نقيض ذلك نجد أقوالا كتلك التي يذهب إليها شوبنهاور تؤكد أن كلاً منا يسلك في الحلم ويتحدث بما يتفق وطبعه كل الاتفاق . فيؤكد ك . ب . فيشر ^(١) أن المشاعر الذاتية والرغبات أو الحالات الوجدانية والانفعالات تكشف عن نفسها في انطلاق الحياة الحاملة ، وأن الأحلام مرايا تعكس الخواص الخلقية للناس .

ويقول هافتر (١٨٨٤ ، ٢٥١) : « وفيها خلا شواذ نادرة . . . يبقى الفاضل فاضلاً في حلمه ، فيقاوم الإغراء وينأى بنفسه عن الكراهية والحسد والغضب وسائر الرذائل ، وأما الأثيم فلا يرى في أحلامه عادة سوى صور سبق أن خطرت له في يقظته . »

ويقول شولتس (١٨٨٧ ، ٣٦) : « في الأحلام الحقيقية ؛ ففيها نرى أنفسنا على ما هي عليه ، بالرغم من كل قناع قد نتخذه للملا بالنبالة أو بالذلة . فالكريم لا يرتكب جرماً شائناً ولو في الحلم ، فإن فعل استفظح فعله كأنه شيء غريب عن طبيعته . والإمبراطور الروماني الذي أمر بموت أحد رعاياه لأنه رأى في المنام أنه يطوح برأس الإمبراطور ، لم يجانب الصواب كثيراً حين برر عمله استناداً إلى أن مثل هذه الرؤيا لا تأتي إلا من كانت له في يقظته مثل هذه الخواطر . وإنا لنعرب عن الأمر الذي لا يمكن أن يكون له مكان في سريرتنا بعبارة لها مغزاها : ذلك ما لا يحظر لى ولو في الحلم . »

(١) في كتابه الذي نشر في عام ١٨٥٠ - وأنقل رأيه هذا عن شبيتا .

وعلى العكس من ذلك يرى أفلاطون أن أحسن الرجال من اقتصروا على أن يحلموا بما يصنع غيرهم وهم مستيقظون .

ويقول فاف^(١) على غرار كلمة معروفة : « خبرني بأحلامك ، أخبرك ما دخيلتك » .

ومشكلة الخلق في الحلم هي المحور الذي يدور من حوله كتيب هيلد برانت الذي كثيراً ما استشهدت من قبل بنصوص منه ؛ لأنه بين كل ما وُضع في دراسة الحلم أبلغه عبارة وأثره فكرياً . والقاعدة الثابتة في نظر هيلد برانت كذلك ، هي أنه بقدر طهارة الحياة تكون طهارة الحلم ، وبقدر دنسها دنسه .

فهو يعتقد أن طبيعة الإنسان الخلقية تبقى في الحلم كذلك ، ويقول : « فبينما لا يدعونا الخطأ في الحساب ، مهما كان ظهوره ، أو قلب القوانين العلمية ، مهما كان شططه ، أو خلط التواريخ ، مهما كان مضحكاً ، إلى التأفف أو حتى مجرد الاسترابة ، ترانا مع هذا نفرق بين الخير والشر ، بين الصواب والخطأ ، بين الفضيلة والرذيلة . فكل ما يلازمنا في نهارنا قد تمحوه ساعات الهجوع ، كله أو جله ، إلا أمر كانت المطلق^(٢) فإنه يتعقب خطانا كرفيق لا انفصال له عنا ولا خلاص لنا منه ولو بالنوم . . . وهذا ما لا يعلمه إلا ثبوت الجزء الأساسي من الطبيعة الإنسانية ، أعنى ماهيتها الخلقية ، ثبوتاً وطيداً يقبها هذا الخلط الكاليدوسكوبي الذي يصيب في الحلم الخيلة والعقل والذاكرة وما شاكلها من سائر الملكات . » (١٨٧٥ ، ٤٥ وما يليها .)

غير أن كلا الفريقين من الكتاب لا يلبث أن يبدى في مستأنف نقاشه في هذا الموضوع تذبذباً في الرأي وخروجاً عن منطقته خليقين بأن ننتبه إليهما . فأولئك الذين يرون في الحلم القضاء على الشخصية الخلقية للمرء كان يجب عليهم — إذا أردنا الصرامة في المنطق — ألا يبالوا بعد ذلك بالأحلام المنافية للأخلاق وكان يسعهم أن يمتنعوا عن كل محاولة تهدف إلى تحميل الحلم مسئولية أحلامه أو إلى الاستدلال بسوئها على سوء معدنه ، وذلك بمثل الهدوء الذي يمتنعون به عن محاولة شبيهة بهذه ، فلا يستدلون بخطأ الحلم في أحلامه على ضعة وظائفه العقلية في يقظته . وأما من يرون أن « الأمر المطلق » يتغلغل إلى الحلم نفسه ، فكان من حق المنطق عليهم أن يقبلوا مسئولية الأحلام المنافية للأخلاق من غير قيد ، ولا

(١) في كتابه المنشور في عام ١٨٦٨ — نقلنا عن شبيتا أيضاً (١٨٨٢ ، ١٩٢) .

(٢) [المراد بهذا الأمر هو قانون الواجب .]

يبقى إلا أن نرجو لهم ألا تزورهم أحلام من هذا النوع الذميمة تخطىء لعناهم الوطيد بقيمتهم الخلقية .

ولكن الذى يبدو هو أنه ما من أحد يعلم بكل هذا اليقين إلى أى مدى خير هو أم شرير ، وأنه ما من أحد يستطيع أن ينكر أنه يذكر أحلاماً له تنافى الأخلاق ؛ فالكتاب من كل فريق - بغض النظر عن تقابل آرائهم فى صدد خلقية الحلم - يجهدون لكى يبينوا أصل الأحلام المنافية للأخلاق ، وهنا يدب بينهم خلاف جديد فى الرأى ، على حسب الوجهة التى يلتزمون فيها هذا الأصل : أفى وظائف الحياة النفسية ، أم فيما يداخل هذه الحياة من تأثيرات ذات علل جسمية . وهكذا تحمل قوة الواقع القائلين بمسئولية الحياة الحاملة والقائلين بارتفاع هذه المسئولية على السواء، تحملهم على أن يلتقوا جميعاً فى التسليم بأن لا خلقية الحلم لها مصدر نفسى خاص .

ويحرص أولئك الذين يعتقدون أن الطبع الخلقى لا يبرح فى الحلم على أن يتجنبوا الاضطلاع بمسئولية أحلامهم كاملة . فيقول هافتر (١٨٨٧ ، ٢٥٠) : « نحن غير مسئولين عن أحلامنا ؛ فقد تقوض فيها أساس الإرادة والفكر ، هذا الأساس الذى به وحده يتوافر لحياتنا الصديق والوجود ... ومن ثم ارتفعت الفضيلة والرذيلة عن رغائب الحلم وفعالها . » بيد أن الإنسان يظل مع ذلك مسئولاً عن أحلامه الآثمة ، من حيث كونه علتها غير المباشرة . ولهذا كان من الواجب عليه أن يطهر نفسه تطهيراً خلقياً فى يقظته ، وبخاصة قبل التوجه إلى النوم .

ويزودنا هيلد برانت بتحليل أعمق كثيراً لهذا المزيج من الرفض والقبول لإزاء مسئوليتنا عن المحتوى الخلقى لأحلامنا . فهو بعد أن يفصل الكلام فى أن من الضرورى عند النظر فى مظهر الأحلام المنافر للأخلاق أن ندخل فى حسابنا أسلوبها الدراى (١) فى التصوير ثم حشرها أعقد العمليات الفكرية فى أقصر برهة من الزمن ، ثم ما تؤول إليه العناصر الفكرية فى الحلم من فقدان القيمة ومن الاختلاط للذين يسلم بهما هو نفسه ، يعود فيعترف بأن ثمت اعتبارات من أخطر ما يكون تنبغى الروية فيها قبل أن نطرح كل مسئولية عن خطاياا الحلم وذنوبه .

يقول (١٨٧٥ ، ٤٩) : « عند ما نريد أن نبرى أنفسنا تبرئة قاطعة من تهمة

(١) [أى الذى يصوغ الفكرة فى قالب الحركة المسرحية .]

محففة وجهت إلينا ، وبخاصة إذا تعلقت الهمة بنياتنا ومطامعنا ، فإننا نستعمل ذلك التعبير السائر : هذا ما لم يكن يخطر لي ولو في الحلم . ولا شك في أننا نعني بذلك ، من ناحية ، أننا نعتبر الحلم أقصى وآخر منطقة يمكن أن نسأل فيها عن أفكارنا ، لأن الأفكار هناك لا يربط بينها وبين جوهرنا الحقيقي إلا رباط واه متراح حتى لا نكاد نستطيع أن نعددها منا ، ولكننا من حيث نشعر بدافع إلى أن ننفي صراحة وجود مثل هذه الأفكار ولو في تلك المنطقة ، نسلم في الوقت عينه تسليماً ضمنيّاً بأن براءتنا لا يتحقق لها التمام إلا إذا بلغت هذا المدى . وأعتقد أننا نتحدث عندئذ بلغة الحق ، وإن يكن على غير وعى منا .

ثم يقول (ص ٥١ وما بعدها) : « ومن المحال أن نتصور فعلاً من أفعال الحلم لم يعرض للنفس المستيقظة الدافع الأصيل إليه في صورة رغبة أو شهوة أو اندفاع . » ومن الواجب أن نقول في صدد هذا الاندفاع الأول : إن الحلم لم يتدعه ابتداءً ، كل الأمر أنه حاكاه وأتماه ، أو هو لم يعد أن يصوغ في قالب درامي رقعة من نسيج تاريخنا عثر عليها في أنفسنا ، إنه يخرج ^(١) كلمة الرسول : كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس ^(٢) . ولقد نسب بعد أن نستيقظ ونحن شاعرون بقوتنا الخلقية لجميع هذا الطيف الذي أحكم خلقه الحلم الأثيم ، ولكن ما من ضحك يستطيع أن يخلصنا من المادة الأولى التي خلق منها الحلم . فالإنسان يشعر بأنه مسئول عما يرتكبه وهو حالم من المعاصي — لا عنها جميعاً ، ولكن عن نسبة مئوية منها مع ذلك . « وخلاصة القول هي أننا إذا أخذنا كلمة المسيح : من القلب تخرج أفكار شريرة ^(٣) ، بهذا المعنى الذي لا يكاد يحتمل جدالاً ، تعذر علينا أن نغالب الاعتقاد بأن كل إثم يؤتى في الحلم يجر معه على الأقل حدّاً أدنى مبهماً من استذئاب النفس . »

وهكذا يرى هيلد برانت مصدر لا خلقية الحلم فيما يعرض للنفس نهراً ، في صورة أفكار أمارة بالسوء ، من بذور الاندفاعات الشريرة ومضاتها ، ثم هو لا يتردد في أن يحسب لهذه العناصر المنافية للخلق حسابها في تقدير خلق الشخص . ونعلم أن هذه الأفكار الأمارة بالسوء عنها ، وأن ذات النظرة في تقديرها ، هي التي ساقى الأتقياء والقديسين من

(١) [بالمعنى المرعى لهذه الكلمة.]

(٢) [رسالة يوحنا الرسول الأول ، الإصحاح الثالث ١٥٢ .]

(٣) [إنجيل متى ، الإصحاح الخامس عشر ، ١٩ .]

جميع العصور إلى التحسر على استبداد الخطيئة بهم^(١) .

وما من شك في أن هذه الأفكار المبينة لما عداها شيء كثير الوقوع عند الغالبية العظمى من الناس ، وفي ميادين أخرى غير الميدان الخلقى . ولكن الحكم عليها كان أقل صرامة أحياناً . ويستشهد شبيتا (١٨٨٢ ، ١٤٤) بنص من تسلر (١٨١٨) يناسب هذا المقام : «وقل أن يكون لعقل من سداد التنظم ما يمكنه من قواه كاملة في كل وقت ، ويصون دائماً سير فكره الواضح المنتظم من أن تعوقه أفكار لا نقول : ثانوية وحسب ، بل قبيحة معكوسة إلى أبعد المدى أيضاً . ولقد رأى أعظم المفكرين على التأكيد ما يدعومهم إلى الشكوى من هذه الخثالة من الخواطر الشبيهة بالحلم ، الملاجنة ، المعذبة ؛ فهي ترجع أعمق تأملاتهم وأشد أفكارهم جدّاً ومهابة .»

وليلد برانت ملاحظة أخرى تلي ضوءاً أسطع على المغزى السيكولوجي الذي تتضمنه هذه الأفكار المبينة ، ومؤدى ملاحظته هو أن الأحلام تتيج لنا الظفر بنظرة عارضة إلى أغوار وجودنا وثناياه ، هذا الوجود الذي يظل موصداً دوننا عادة في خلال اليقظة . ويعرب كانت عن هذه الفكرة نفسها في فقرة من كتابه في علم الإنسان [١٧٩٨] ، يعلن فيها أن الغاية من الحلم ربما كانت الكشف عن استعداداتنا الدفينة ، وإظهارنا لا على ما نحن عليه بل على ما كان يحتمل أن نكونه لو أننا نشتنا تنشئة أخرى . ويقول رادشوك (١٨٧٩ ، ٨٤) : « إن الحلم إنما يظهر مالا نود مصارحة أنفسنا به ، ونحن إذ نرغمه حين نرغمه بالكذب والخداع . » ويقول ي . إ . إردمان : « ما أرثى الأحلام قط كيف ينبغي لي التفكير في شأن رجل ما ، فأما كيف أفكر فيه حقيقة ، وما هي نيأتي نحوه ، فذلك - لبالغ دهشى - ما علمنى الحلم إياه أحياناً . » ويقول ي . ه . فيخته (١٨٦٤ ، ١ ، ٥٣٩) : « إن الطابع الذي يسم أحلامنا مرآة تصور لنا حالتنا النفسية في مجموعها تصويراً أصدق كثيراً مما نستطيع تحصيله في يقظتنا بالملاحظة الذاتية . » وإن انبعاث هذه الاندفاعات الغريبة عن شعورنا الخلقى ليتاظر ظاهرة أخرى عرفناها من قبل ، وأعنى بها نفاذ الحلم إلى مادة فكرية تغيب في حالتنا المستيقظة أو لا يكون لها في أثناء هذه الحالة سوى شأن ضئيل . وهذا هو ما

(١) قد يقيدنا أن نعلم موقف محكمة التفتيش من مشكلتنا هذه . فقد جاءت في مؤلف توماس كارينا (١٦٥٩) الفقرة الآتية : « إذا تلفظ أى شخص ببذعة في أثناء نومه ، وجب على المفتشين أن يروا في ذلك داعياً إلى تقصى مسلكه ؛ فإيراد الإنسان في نومه إلا ما يشغله في نهاره . » (عن إفادة من الدكتور اهنيجر ، سان أوربان ، سويسرا .)

تنبهنا إليه ملاحظة مثل ملاحظة بنبني : « إن رغباتنا التي ظننا زمناً أنها قد اندثرت وانطفأت توقظ من جديد ، ومن جديد تبعث إلى الحياة الانفعالات القديمة المقبورة . وتمثل أشياء وأشخاص لا نفكر في أمرها وأمرهم إطلاقاً . » (١) (١٨٩٨ ، ١٤٩) ، أو ملاحظة فولكت : « وكذلك الشأن في الأفكار التي تلج الشعور غير ملحوظة أو لا تكاد والتي قد لا نستحضرها إلى الذاكرة بعد ذلك قط ؛ فإنها كثيراً جداً ما تعلن عن وجودها في النفس بوساطة الحلم » (١٨٧٥ ، ١٠٥) . وأخيراً فلنا أن نذكر في هذا المعرض حديث شلايرماخر عن اصطحاب فعل الأخذ في النوم بانبعث الأفكار (أو الصور) اللاإرادية . (أنظر ص ٨٤ .)

ولنا إذن أن ندرج في باب « الأفكار اللاإرادية » جميع المادة الفكرية التي يثير انبعاثها استغرابنا ، في الأحلام اللاخلاقية واللامعقولة على السواء . بيد أن ثمت فارقاً هاماً بين الحالتين . هذا الفارق هو أننا نرى أن الأفكار اللاإرادية المتعلقة بالمجال الخلقى تناقض ما نألف من مشاعرنا ، بينما تبدو لنا الأخرى عجيبة وحسب . وما من خطوة اتخذت حتى اليوم من أجل الوصول إلى معرفة أعمق غوراً تتجاوز هذه التفرقة .

والآن ، ما هو معنى ظهور الأفكار اللاإرادية في الحلم ، وأي النتائج تخلص لعلم النفس المستيقظة والحاملة من هذا الانبعث الليلي للنوازع الخلقية المابينة لما عداها ؟ هنا تعود الآراء فتنقسم من جديد ، ويعود المؤلفون أيضاً فيجتمعون أو يتفرون شيعاً على نحو جديد . فالفكرة التي قال بها هيلد برانت وغيره من الذين يشاطرونه جوهر رأيه تسوق لا محالة إلى التسليم بأن الاندفاعات اللاخلاقية تملك قدراً من القوة في حياة اليقظة نفسها ، غير أنها قوة مكفوفة لا تملك التقدم إلى حيز العمل ، وبأن شيئاً يبطل في أثناء الليل ، كان له في النهار فعل الكف ، فحال دوننا والانتباه إلى وجود أمثال هذه الاندفاعات . والحلم إذن قد يكشف عن طبيعة الإنسان الحقيقية ، وإن لم يكشف عن طبيعته كلها ، وقد يكون إحدى الوسائل في تقريب باطن نفسه المستتر من معرفتنا . فهذا الفرض وحده هو الذي يخول هيلد برانت أن يعزو إلى الحلم قوة النذير الذي يجذب انتباهنا إلى معايينا الخلقية ، مثلما يعزو إليه الطبيب قوة الكشف عما تفوت ملاحظته من أدواء الجسم . ولا شك

(١) [“Certe nostre inclinazioni che si credevano soffocate e spente da un pezzo, si

ridestano; passioni vecchie e sepolte rivivino; cose e persone a cui non pensiamo mai, ci vengono dinanzi.”]

في أن شبيبنا كذلك إنما يسترشد هذه النظرة حين يتحدث عن مصادر التهييج التي تؤثر في النفس في سن المراهقة مثلاً، فيعزى الحلم بأنه إذا التزم الحياة الفاضلة في يقظته وكان حريصاً على أن يقمع الأفكار الآتمة كلما انبعثت وعلى أن يحول بينها وبين أن تنضج وتصير فعلاً ، فقد صنع كل ما وسعه أن يصنع . ويحق لنا وفقاً لهذه النظرة أن نعرف الأفكار « اللإرادية » بقولنا : إنها أفكار « قمعت » في خلال النهار ، ويحق علينا أن ننظر إلى انبعائها نظرتنا إلى ظاهرة سيكولوجية صادقة .

بيد أن ثمت كتاباً آخرين يرون أننا لا نملك ما يبرر النتيجة الآتفة . ففي رأى يسن أن الأفكار اللإرادية في الحلم كما في اليقظة وفي هذيان الحمى وغير الحمى من الحالات « تنسم بإخلاء النشاط الإرادى إلى السكينة ، وبتوارد الصور والأفكار المستثارة باندفاعات باطنة توارداً آلياً إلى درجة تزيد أو تنقص » (١٨٥٥ ، ٣٦٠) . وكل ما يدل عليه الحلم اللاخلقى من الحياة النفسية للحالم هو أن الحالم قد سبقت له معرفة بمحتوى الحلم الفكرى ، ولكن الحلم لا يشهد على التأكيد بحصول صاحبه على نزوع نفس ما . فإذا رجعنا إلى مؤلف آخر هو مورى كاد يهيا إلينا أنه لا ينسب إلى الحلم القدرة على هدم النشاط النفسى هدماً لا هدف من ورائه ، وإنما القدرة على رده إلى مقوماته . فهو يقول في صدد الأحلام التي يتخطى فيها المرء موانع الأخلاق : « إن نوازعنا هي التي تتحدث وتحركنا إلى العمل دون أن يمسكنا الضمير وإن حذرنا أحياناً . فإن لى نقائسى ونوازعى إلى الرذيلة ، فإن كنت مستيقظاً جهدت في مغالبتها ، ولا يندر أن أفلح فلا أسلمها قيادى . وأما في أحلامي فأسلمه دائماً ، أو قل : إننى أعمل بدفعها ، من غير خوف ولا ندم ... فن الواضح أن الرؤى التي تتوارد أمام فكرى والتي منها يتكون الحلم ، توجيها إلى الحوافز التي أحسها والتي لا تسعى إرادتى الغائبة إلى كبتها . » (١٨٧٨ ، ١١٣) .

وما من أحد يؤمن بقدرة الحلم على أن يرفع النقاب عن ميل للحالم منافع للخلق اشتملت عليه نفسه حقيقة وإن كان مقموراً أو مستراً ، كان يستطيع أن يعرب عن هذا

["Ce sont nos penchants qui parlent et qui nous font agir, sans que la conscience (١)

nous retienne, bien que parfois elle nous avertisse. J'ai mes défauts et mes penchants vicieux; à l'état de veille je tâche de lutter contre eux, et il m'arrive assez souvent de n'y pas succomber. Mais dans mes songes j'y succombe toujours ou pour mieux dire j'agis par leur impulsion, sans crainte et sans remords... Evidemment les visions qui se déroulent devant ma pensée et qui constituent le rêve, me sont suggérées par les incitations que je ressens et que ma volonté absente ne cherche pas à refouler."]

المعنى بأدق من قول موري (ص ١١٥) : « في الحلم إذن ينكشف الإنسان لنفسه كله ، على ما ولد عليه من عرى وعوز . فهو ما أن يعلق استعماله لإرادته حتى يصير العوبة لجميع الانفعالات التي ينهانا عنها ونحن مستيقظون الضمير والإحساس بالشرف والخوف . » (١) وفي فقرة أخرى نقرأ له هذه الكلمة الثاقبة (ص ٤٦٢) : « إن الذي ينكشف في الحلم هو على الأخص الإنسان الغريزي . فالإنسان حين يحلم يعود إلى الفطرة - إن جاز التعبير . وكلما قل تأصل الأفكار المكتسبة في نفسه ، زاد احتفاظ النوازع المخالفة لها بسلطانها عليه في الحلم . » (٢) ومثاله على ذلك هو أنه كثيراً ما يبدو في أحلامه ضحية الحرافات التي يجارها في كتاباته أشد محاربة .

ولكن يتقص قيمة هذه الملاحظات الثاقبة لموري من حيث أثرها في معرفتنا السيكلوجية بالحياة الحاملة رفضه أن يرى في الظاهرة التي أصاب في ملاحظتها إلى هذا المدى شيئاً آخر غير « الأوتوماتية السيكلوجية » (٣) التي تسيطر على الحياة الحاملة في زعمه ، والتي يرى فيها الضد التام للنشاط النفسي .

هذا ، ونجد عند شترىكر (١٨٧٩) فقرة يقول فيها : « إن الحلم لا يتكون من أوهام وحسب ؛ فحين يخاف المرء في الحلم غائلة اللصوص مثلاً ، فاللصوص يقينا من صنع خياله ، لكن الخوف حقيقي . » وفي هذا ما ينهنا إلى أن الحالات الوجدانية في الحلم لا تقبل الحكم الذي يصدق على سائر محتواه . ومن ثم تنشأ هذه المشكلة : أي عمليات الحلم النفسية يمكن اعتبارها عمليات حقيقية ؟ وهذا يعني : أيها يستحق أن يقسم له مكان بين العمليات النفسية حياة اليقظة ؟

(١) ["En rêve l'homme se révèle donc tout entier à soi-même dans sa nudité et sa misère natives. Dès qu'il suspend l'exercice de sa volonté, il devient le jouet de toutes les passions contre lesquelles, à l'état de veille la conscience, le sentiment d'honneur, la crainte nous défendent."]

(٢) ["Dans le rêve, c'est surtout l'homme instinctif qui se révèle... L'homme revient pour ainsi dire à l'état de nature quand il rêve; mais moins les idées acquises ont pénétré dans son esprit, plus les penchants en désaccord avec elles conservent encore sur lui d'influence dans le rêve."]

["automatisme psychologique".]

(٣)

ز

نظريات الحلم ووظيفة الحلم

كل مقال عن الحلم يهدف إلى تحليل أكثر ما يمكن تعليقه من خصائصه الملاحظة مستنداً في ذلك إلى وجهة نظر بعينها ، ثم في الوقت نفسه يعرف مكان الحلم ضمن دائرة أوسع نطاقاً من الظواهر ، تجوز لنا تسميته نظرية في الحلم . وتتميز نظريات الحلم المختلفة فيما بينها من حيث تعلی هذه الخاصة أو تلك إلى مرتبة الخاصة الجوهرية للحلم وتقيم عليها التعليقات والعلاقات . ولا يتحتم أن تنفر عن كل نظرية وظيفه ما للحلم ، سواء أكانت وظيفه نفعية أم لم تكن ، بيد أننا وقد ألفنا أن نتوقع للأشياء غاياتها أكثر ترحيباً بهذه النظريات التي تلزم منها للحلم وظيفه .

ولقد أحطنا من قبل بنظرات متعددة تستحق بهذا المعنى أن يطلق عليها اسم النظريات . فاعتقاد القدامى أن الحلم ترسله الآلهة لهداية الإنسان في أفعاله كان نظرية أفادت أصحابها خبراً بكل ما كانت تنبغى معرفته عن الحلم . ومنذ أن صار الحلم موضوع بحث علمي ، عرفنا عدداً وافرأ من النظريات ، ولكن الكثير منها غاية في النقص .

فإذا لم ندع الاستيعاب ، أمكن أن نقسم نظريات الحلم تلك الأقسام الإجمالية الثلاثة ، وذلك من حيث مسلماتها الضمنية فيما يتصل بدرجة النشاط النفسي في الحلم ونوع هذا النشاط :

١ - نظريات ترك النشاط النفسي يستمر كله في الحلم ، مثل نظرية دلبوف . فالنفس على حسب هذه النظريات لا تنام ، وجهازها يظل سليماً ، ولكنها إذ تخضع لشروط حالة النوم المختلفة من شروط حياة اليقظة تحدث بأدائها السوي لوظائفها نتائج تختلف بالضرورة في أثناء النوم منها في اليقظة . والسؤال الذي نسأله بصدد هذه النظريات هو : هل هي تستطيع أن تشتق كل الفروق القائمة بين الحلم والتفكير المستيقظ من شروط حالة النوم وحدها ؟ ثم هي فوق ذلك لا تملك سيلاً تستطيع منه أن تتبين للحلم وظيفه ؟ فنحن لا نعلم لم نعلم ، لم تستمر الميكانيكية المعقدة للجهاز النفسي في العمل حتى بعد الانتقال به إلى ملابسات لا يبدو معداً لها . فالنوم من غير حلم واليقظة إن وقع مزعج ، هما

وحدهما اللذان يظلان استجابتين نافعتين ، بدل الثالثة التي هي الحلم .

٢- نظريات أخرى تفترض على العكس أن الحلم يتضمن نقصاً في النشاط النفسى وتراحياً في الروابط وفقراً فيما يستطيع امتلاكه، من المواد . ويلزم من هذه النظريات أن تكون للنوم خصائص تختلف كل الاختلاف من تلك التي يضيفها إليه دلبوف مثلاً . فالنوم وفق هذه النظريات ينال من النفس أكبر منال ، فلا يقتصر على إيصالها دون العالم الخارجى ، بل ينفذ إلى ميكانيكيته ويبتل عملها إبطالا موقوتاً . واو كان لى أن أجازف بتشبيه مستمد من مجال علم الطب النفسى ، لقلت : إن النظريات الأولى تتركب الحلم على غرار البارانونيا ، بينما تصوره الثانية على صورة الضعف العقلى أو الحالات الخلطية .

والنظرية القائلة : إن الحياة النفسية لا تجد في الحلم إعراباً إلا عن جزء منها فقد شلها النوم ، هي النظرية المفضلة كثيراً عند الكتاب الأطباء وفي الدوائر العلمية بوجه عام . فهى النظرية التي يمكن وصفها بأنها النظرية السائدة - بقدر ما يمكن القول بأن هناك اهتماماً عاماً بتعليل الأحلام . ولا يفوتنا أن نلاحظ مدى السهولة التي تتجنب بها هذه النظرية الارتظام بالعقبة الكأداء التي تعترض كل محاولة في تعليل الحلم ، وأغنى بها صعوبة فض متناقضاته . فهذه النظرية ترى في الحلم نتيجة يقظة جزئية («يقظة تدرجية ، جزئية ، هي في الوقت نفسه يقظة غير سوية إلى أبعد مدى » بتعبير هربارت ، ١٨٩٢) ؛ ولهذا فقد وسعها بسلسلة متدرجة من حالات التيقظ تتوجها اليقظة التامة أن تعلق كل درجات التفاوت في نتاج النشاط النفسى للحلم ، من أحطه الذى يتجلى في مجانبة كل معقولة إلى التفكير المركز تمام التركيز .

وأولئك الذين لا يرون لأنفسهم غنى عن لغة الفيزيولوجيا ، أو يرون لهذه اللغة طابعاً علمياً لا يرونه لغيرها ، سوف يجدون ضالهم في قول بينتس (١٨٧٨ ، ٤٣) :

« ولكن هذه الحالة (حالة السبات) لا تشرف على الانتهاء في ساعات الصباح المبكر إلا بالتدرج ، فتنقص المواد المتراكمة من التعب في البوهين المخ ، ويزداد ما يفسد منها أو يكتسحه جريان الدم غير المنقطع . وهكذا تستيقظ هنا وهناك مجموعات متفرقة من الخلايا بينما يبقى ما يحيط بها على حاله من السبات . وهنا يظهر أمام الشعور النائم أثر النشاط المنزحل لمجموعات الخلايا المتفرقة دون أن تكبحه سائر أجزاء المخ المتحركة في المستدعيات . ولهذا السبب كانت الصور الناشئة عن ذلك والتي يستمد معظمها من الانطباعات المادية

لماضينا القريب ترتبط بعضها ببعض على نحو همجي ، لا ضابط له . ولكن كلما أخذت خلايا المخ المستيقظة تزداد عدداً ، نقص خبل الحلم شيئاً فشيئاً . »
وتصور الحلم يقظة جزئية غير مكتملة تصور نصادفه يقيناً ، أو على الأقل نصادف آثاراً من نفوذه ، في كتابات كل فيزيولوجي أو فيلسوف معاصر . ومورى هو أكثر من فصل الكلام فيه ؛ فهذا المؤلف يبدو في كثير من الأحيان كأنه يتخيل أن حالة اليقظة أو النوم تقبل النقلة من منطقة تشريحية إلى أخرى ، هذا مع ارتباط كل منطقة تشريحية في رأيه بوظيفة نفسية خاصة بها ارتباطاً لا شك فيه . ولكنني لا أبتغي في هذا الموضوع سوى الإلماع إلى أن نظرية اليقظة الجزئية - حتى إذا لاقت ما يؤيدها - تظل معرضة أشد التعريض لنقاش طويل في دقائقها .

وطبعي أن هذه النظرية لا تترك مجالاً للحديث عن وظيفة معينة للحلم . بل الأصح أن يبتس يستخلص نتیجتها المنطقية فيما يتصل بمقام الحلم ومغراه حين يقول (١٨٧٨ ، ٣٥) :
« إن كل الوقائع تدفعنا - كما نرى - إلى أن نعد الحلم عملية جسمية معدومة النفع في جميع الحالات ، مرضية على التحقيق في الكثير منها . »

ولا شك في أن تطبيق النعت « جسمي » - الذي يدين بإبرازه إلى المؤلف نفسه - على الأحلام ، أمر له أكثر من دلالة . فهو يشير أولاً إلى عليية الحلم التي كانت ولا شك تلوح لعين بينتس ذات وجهة خاصة حين كان يدرس إحداث الأحلام بالتجريب ، بإعمال المواد السامة . فما يتسق وهذا الضرب من النظريات أن يقصر الحافز إلى الحلم على علل جسمية ، قدر الإمكان . ولو أننا صغنا هذه النظرية في أشد صورها تطرفاً ، لكان منطوقها هكذا : إننا ما أن نبعد عن أنفسنا كل منبه فننم حتى تنعدم كل حاجة إلى الحلم وكل مناسبة تبعث عليه ، إلى أن يجيء الصباح فتتوارد المنبهات من جديد ونأخذ من جانبنا في الاستيقاظ وينعكس ذلك في ظاهرة الحلم ، بيد أن صيانة النوم من كل منبه ضرب من المحال ؛ فالمنبهات تقتمح النوم من كل الجوانب ، مثل بذور الحياة التي ضج منها مفيستو بالشكوى ، ^(١) تقتمحه من داخل ومن خارج ، بل من أجزاء من جسمه لا نلاحظ شأنها مطلقاً ونحن مستيقظون ، وهكذا ينزعج النوم وتهتز إلى اليقظة هذه الزاوية من النفس ثم تهتز تلك ، وتعمل النفس بشطرها المستيقظ سعيدة إذا استطاعت أن تعود إلى النوم من

(١) [قاوست ، الجزء الأول ، المشهد الثالث : في مكتب قاوست .]

جديد ، والحلم إنما هو استجابة إلى الإزعاج الذى تجلبه المنبهات على النوم - استجابة لا طائل منها بعدُ على الإطلاق .

ثم إن وصف الحلم - الذى يظل مهما قيل وجهاً من أوجه النشاط النفسى - بكونه عملية جسمية ، ينطوى أيضاً على مقصد آخر : فيه يجرد الحلم من قيمة العملية النفسية . وربما كان مثل « العازف الجاهل الذى تجرى أصابعه العشرة على الأوتار » ، هذا المثل البالى الذى يطبقه ولاة العلم المضبوط على الحلم ، هو خير ما يصور أية استهانة يلقاها بينهم النشاط النفسى للحلم . وعلى حسب هذه النظرة يصبح الحلم شيئاً لا يقبل تفسيراً ؛ فأتى للعازف الجاهل أن تجد أصابعه العشرة بمقطوعة من الموسيقى ؟

ولم تعدم نظرية اليقظة الجزئية نقادها حتى فى الماضى البعيد . فقد كان من رأى بورداخ عام ١٨٣٨ : « أننا حين نقول : إن الحلم يقظة جزئية ، فهذا القول - أولاً - لا يلقى ضوءاً ما سواء على اليقظة أو على النوم ، ثم هو - ثانياً - لا يعدو قولنا : إن بعض القوى النفسية تنشط فى أثناء الحلم بينما يظل البعض الآخر ساكناً . ولكن مثل هذا التفاوت يقع فى كل وقت من الحياة . . . » (ص ٥٠٨)

وإلى هذه النظرية السائدة التى ترى فى الحلم عملية جسمية ، يستند فرض خليك بأكبر الاهتمام ، كان روبرت أول من ذهب إليه عام ١٨٨٦ ، وهو فرض له جاذبيته لأنه يعرف كيف يجعل للحلم وظيفة أو نتيجة نافعة . ويقدم روبرت نظريته على واقعيتين من الوقائع الملاحظة ، سبق لنا النظر فيهما ونحن نبحت فى مادة الحلم (أنظر ص ٥٧) . وهاتان الواقعتان هما : أننا غالباً ما نحلم بأكثر انطباعات النهار تفاهة ، وأننا نادراً ما نتابع فى الحلم مشاغل النهار الهامة . ويؤكد روبرت أن من الصحيح بوجه لا استثناء فيه أن الأشياء التى فرغنا من التفكير فى أمرها لا تحفز إلى الحلم إطلاقاً ، وإنما تحفز إليه تلك التى تعلق بالذهن دون أن تكتمل ، أو التى يكون الذهن قد مر بها مروراً خاطئاً (١٨٨٦ ، ١٠) . - « والسبب الذى من أجله نعجز عادة عن تعليل أحلامنا هو أن عللها هى على التحديد تلك الانطباعات الحسية التى لم يتعرفها الحلم فى اليوم السابق تعرفاً كاملاً . » فالشرط فى تسرب انطباع ما إلى الحلم هو إما أن يحول حائل دون الفراغ من التفكير فى أمره ، وإما أن يكون هذا الانطباع ضئيل الشأن بحيث لا يتطلب مثل هذا التفكير على الإطلاق .

والحلم إذن ، فى تصور روبرت ، « عملية نرح جسمية ، نصير إلى الشعور بها فى

استجابتنا إليها . « إن الحلم نزع لأفكار خنقت في المهد . « ولو أن إنساناً سلب القدرة على الحلم ، لانتهى به الأمر حيناً إلى الخلل العقلي ؛ إذ سوف يزدحم في ذهنه عدد يفوق الحصر من الحواطر الناقصة المعلقة ومن الانطباعات السطحية . بحيث تختنق تحت ثقل هذه الحواطر والانطباعات تلك الأفكار التي يجب أن تمكث في الذاكرة في صورة كل مكتمل . »
فالحلم يعمل عمل صمام الأمان بالنسبة إلى الذهن المثقل ، وإن الأحلام لتملك قدرة مطبية مخفية . (ص ٣٢) .

غير أننا نخطيء فهم روبرت إذا نحن سألناه كيف يفيد تمثيل الأشياء في الحلم في تخفيف أعباء النفس . فمن الواضح أن المؤلف قد خلص من هاتين الخاصتين اللتين تميزان مادة الحلم إلى أن الانطباعات المجردة من القيمة يتم نزعها في أثناء النوم على نحو من الأثناء بفعل عملية جسمية ، وإلى أن الحلم ليس عملية نفسية قائمة بذاتها ، بل هو المعرفة التي تبلغنا عن هذا النزع . والنزع بعد ذلك ليس الشيء الوحيد الذي يحدث ليلاً في النفس ؛ فروبرت نفسه يضيف إلى ما سبق أن الأفكار المتخلفة من اليوم المنقضى قد يتم فوق ذلك إحكامها ، وأن « ما لا يتسنى نزحه من المواد التي تبقى في الذهن دون أن تهضم قد يربط فيما بينه بنحويط مستعارة في الخيلة بحيث يكون كلاً مؤتلفاً ، وبهذا ينتظم في الذاكرة كصور خيالية لا ضرر منها . » (ص ٢٣) .

ولكن روبرت يخالف النظرية السائدة تمام المخالفة من حيث تقديره لطبيعة المصادر التي يصدر عنها الحلم . فبينما يخلص من تلك النظرية أن الإنسان ما كان ليحلم لولا المنبهات الحسية التي توقظ النفس بدون انقطاع من الداخل ومن الخارج ، تقيم نظرية روبرت الدافع إلى الحلم في النفس ذاتها ، في ثقل أحماها وحاجتها إلى التخفيف ، ثم بعد ذلك يستخلص روبرت من رأيه هذا نتيجة المنطقية فيقرر أن علل الحلم المنبعثة من أحوال الجسد إنما تشغل مرتبة ثانوية ، وأن ذهناً لم يخترن من شعوره المستيقظ مادة يبنى بها أحلامه ما كانت تسوقه هذه العلل إلى الحلم بحال من الأحوال . والقيد الوحيد الذي يقيد به روبرت رأيه هذا هو تسليمه بأن الأخيلة المنبعثة في الحلم من أعماق النفس قد تتأثر بفعل المنبهات العصبية (ص ٤٨) . وهكذا لا يكون الحلم في النهاية ، على حسب روبرت ، متوقفاً كل التوقف على الأحداث الجسمية . ومع هذا فالحلم في رأيه ليس بالعملية النفسية ، ولا له من محل بين العمليات النفسية لليقظة ، إنه عملية جسمية تقع كل ليلة في الجهاز المختص بالنشاط

النفسي ، عملية لها وظيفة تؤديها ، هي وقاية هذا الجهاز من فرط التوتر ، أو إذا جاز أن نستبدل بالتشبيه تشبيهاً فهذه الوظيفة هي : تنظيف النفس .

وعلى ذات الخاصتين المتجليتين في اختيار مادة الحلم يقيم مؤلف آخر ، هو إيڤ دولاج ، نظريته . وإنه لمن المفيد في هذا المعرض أن نرى كيف تؤدي حيدة خفيفة في النظر إلى ذات الأشياء إلى نتيجة مختلفة الدلالة كل الاختلاف .

فقد لاحظ دولاج عن خبرة وقعت له ، بعد أن أفقده الموت عزيزاً لديه ، أن المرء لا يحلم بما يستبد بفكره نهائياً ، أو لا يحلم به إلا بعد أن تأخذ شواغل النهار الأخرى في تلطيفه . فلما استعلم غيره تأيد عنده هموم هذا الوضع . وإنه ليأتي في صدد أحلام المتزوجين حديثاً بملاحظة تكون خليقة بالاهتمام لو ثبت اطراد صدقها ، يقول (١٨٩١ ، ٤١) : « إذا كان كلاهما شديد الشغف بالآخر ، لم يكذب يحلم به مطلقاً قبيل الزواج أو في خلال شهر العسل فإن حلم بغرام ، فلكي يرتكب في حلمه خيانة ما مع ثالث لا منزلة له في النفس أو كريبه إليها . » (١) بم تحلم النفس إذن ؟ يرى دولاج أن المادة التي تعرض في أحلامنا تتكون من نبت مستقاة من انطباعات الأيام الأخيرة أو التي قبلها ومن بقاياها . فكل ما يظهر في أحلامنا وننزع في أول الامر إلى ان نعه خلق الحياة الحاملة ، لا نلبث أن نتبين حين نفحصه عن مقربة أنه استحضار لم نعرفه [لخبرة سابقة] ، أنه « ذكرى لاشعورية » (٢) . بيد أن هذه المادة الفكرية تبدي خاصة مشتركة : فهي تنشأ من انطباعات كان تأثيرها في حواسنا أشد على الأغلب منه في عقولنا ، أو من انطباعات تحول عنها الانتباه على أثر وقوعها . فكلما قل حظ الانطباع من الشعور وزاد مع ذلك حظه من القوة ، ازداد احتمال أخذه من الحلم القادم بنصيب .

هاتان المقولتان من مقولات الانطباعات : ما خلا من الشأن وما لم نفرغ من أمره بعد ، هما من حيث الجوهر ذات المقولتين اللتين ذكرهما روبرت نلقاهما من جديد . ولكن دولاج ينحو بالمسألة نحواً آخر ؛ فهو يرى أن هذه الانطباعات لا تحدث الحلم لخلوها من الشأن بل لكوننا لم نفرغ من استيعاب التفكير فيها . ومن الصحيح أن الانطباعات التافهة

(١) ['S'ils ont été fortement épris, presque jamais ils n'ont rêvé l'un de l'autre avant

le mariage ou pendant la lune de miel; et s'ils ont rêvé d'amour c'est pour être infidèles avec quelque personne indifférente ou odieuse.]

["souvenir inconscient"]

(٢)

هي أيضاً بمعنى من المعاني انطباعات لم تلق منا معالجة كافية؛ فهي - وهي الحديثة العهد - تكون بمثابة «لواب مشدودة» (١) تزخى في أثناء النوم. والانطباع القوى الذى اتفق أن حال حائل دون الفراغ من معالجته أو الذى كبح جماحه عن عمد له حق في المشاركة في الحلم يفوق ما يكون لانطباع ضعيف لم يكد يلقي انتباهاً. فالقوة النفسية المختزنة في أثناء النهار نتيجة للكف وللمقمع تصير القوة الدافعة إلى الحلم في الليل: في الحلم يبرز المكبوت النفسى (٢).

ومن سوء الحظ أن دولاج يقف بنظريته عند هذا الحد. فهو لا يستطيع أن يعزو إلى نشاط نفسى مستقل إلا أقل نصيب في الحلم، وبهذا يرتد بنظريته إلى ما يتفق والنظرية السائدة، نظرية الصحو الجزئى: «وخلاصة القول هي أن الحلم نتاج الفكر الضال من غير هدف ولا اتجاه، متوقفاً على التعاقب عند الذكريات التى بقى لها من الشدة ما يمكنها من اعتراض طريقه واستيقاف سيره، رابطاً بينها برباط يضعف ويرخو حيناً ثم يشتد حيناً آخر ويضيق، على حسب التفاوت في مقدار ما يحويه النوم من نشاط المخ الفعلى.» (٣) (ص ٤٦).

٣- ونستطيع أن ندرج في طائفة ثالثة تلك النظريات التى تعزو إلى النفس الحاملة قدرة ونزوعاً إلى أنواع بعينها من النشاط النفسى تعجز عن أدائها في الحياة المستيقظة كل العجز أو لا تؤديها إلا على نحو ناقص جداً - وإن تشغيل هذه القدرات لأمر يجعل عادة للحلم وظيفة. وفي هذه الطائفة الثالثة تدخل معظم آراء علماء النفس الأسبقين في تقدير الحلم، بيد أنى أقنع بأن أنيب عنهم نصاً لبورداخ يخلص منه أن الحلم «هو النشاط الطبعى للنفس، نشاط لا يقبده طغيان الفردية، ولا يعطله شعور بالذات، ولا يوجهه

[“autant de ressorts tendus”.]

(١)

(٢) يعرب أناتول فرانس عن فكرة ماثلة كل الماثلة إذ يقول:

“Ce que nous voyons la nuit, ce sont souvent les restes malheureux de ce que nous avons négligé dans la veille. Le rêve est souvent la revanche des choses qu'on méprise ou le reproche des êtres abandonnés.” (Le lys rouge)

[“إن ما نراه في خلال الليل هو في الكثير من الأحيان تلك البقايا التمسع لما أغفلناه في يقظتنا؛ فالحلم كثيراً ما يكون ثأر الأشياء التى احتقرناها، أو عتاب الكائنات التى هجرناها.” الرنبة الحمراء.]

[“En somme le rêve est le produit de la pensée errante, sans but et sans direction, (٢)

se fixant successivement sur les souvenirs qui ont gardé assez d'intensité pour se placer sur sa route et l'arrêter au passage, établissant entre eux un lien tantôt faible et indécis, tantôt plus fort et plus précis selon que l'activité actuelle du cerveau est plus ou moins abolie par le sommeil.”]

الحلم الذاتى ، وإنما هو حيوية المراكز الحسية وقد خلعت للعب الطليق . « (١٨٣٨) ، (٥١٢) .

ومن الواضح أن بورداخ وسائر من ذهب مذهبه يرون أن هذا البذخ فى استخدام النفس قواها حالة تنتعش النفس فيها وتجتمع لها بها قوة جديدة على عمل النهار ، شىء أشبه بالإجازة . ولهذا كان بورداخ يستشهد بالكلمات الساحرة التى يشيد فيها الشاعر نوفاليس بمملكة الحلم ، ويقبل هذه الكلمات : « الحلم درع بيننا وبين راتب الحياة ومألوفها ، استرواح طليق للمخيلة تضرب فيه جميع صور الحياة بعضها ببعض وتقطع جد الراشد المستديم بلعب الطفل المرح ؛ فلولا الحلم لكان من المستيقن أن تسبق شيخوختنا أوانها . وهكذا يستطيع الإنسان أن يرى فى الحلم هبة غالية ، وإن جاز ألا تكون مرسله من عليلين ، وأن يعده رفيقاً مخلصاً يصحبه فى حجه إلى قبره . »

ويصف بوركينيه هذه الوظيفة المطيبة المجددة لقوى الحياة وصفاً أكثر بعد إلحاحاً ، فيقول (١٨٤٦ ، ٤٥٦) : « والأحلام المبدعة بنوع خاص هى التى تقوم بهذه الوظائف . فهذه الأحلام هى لعب المخيلة لعباً سهلاً وليس يربط بينها وبين أحداث النهار رباط ما . فالنفس راغبة عن إطالة ما تتضمنه الحياة المستيقظة من التوترات ، بل هى تنشد إرخاءها والاستجمام منها . ثم هى قبل كل شىء تخلق حالات تضاد حالات اليقظة ، فتعالج الحزن بالفرح ، والهم بالأمل وصور السلوان ، وتعالج الكراهية بالحب والصدقة ، والخوف بالشجاعة والثقة ، وتهدىء الشك باليقين والاعتقاد الراسخ ، والانتظار على غير طائل بالتحقيق . وكثير من جراح القلب التى لا تلتئم أبداً فى النهار يداوئها النوم الذى يسترها ويصونها من كل هائج جديد . وعلى هذا يبنى إلى حد فعل الزمن الشافى . » ونحن جميعاً نشعر بأن للنوم فعلة الطيب فى الحياة النفسية ، كما أن الإحساس الغامض الذى للروح الشعبى يأبى إباءً صريحاً أن يسلب اعتقاده بأن الحلم أحد الطرق التى منها يبذل النوم أفضاله .

ولكن أشد المحاولات أصالة وأعمقها غوراً فى تعليل الحلم باعتباره نوعاً خاصاً من النشاط النفسى لا يستطيع الانطلاق حرراً إلا فى خلال النوم ، هى تلك التى أتاها شرزر سنة ١٨٦١ . لقد كتب شرزر كتابه بأسلوب ثقيل ، طنان ، مشبع بحماسة للموضوع تكاد تقارب التمل ، أسلوب من شأنه أن يصد كل قارئ لا ينساق فى تياره ، ثم هو يقيم فى وجه من

يتعرض لتحليله صعوبات تجعلنا نعتاض عنه طواعية بالعرض الواضح الموجز الذى كتبه الفيلسوف فوللكت لنظريات شرزر : « من خلال هذه الأركان التصوفية ومن ثانياً هذه السحب من الفخامة والبهاء تومض ، وميض البرق ، لمحات المعنى المكنون . لكن هذه لا تنير طريق الفيلسوف . » - ذلك هو الحكم الذى يصدره على أسلوب شرزر تلميذه نفسه . (فوللكت ١٨٧٥ ، ٢٩) .

إن شرزر ليس من هؤلاء الكتاب الذين يدعون للنفس كل ملكاتها حين تنتقل إلى الحياة الحاملة . كلا ، بل هو يرينا كيف تجرد بؤرة الأنا المركزية ، طاقته التلقائية ، من قوتها العصبية فى أثناء الحلم ، وكيف تنجم عن هذه اللامركزية المدخلة أن تتغير عمليات المعرفة والإحساس والإرادة والتصور ، وكيف تعدم البقايا المتبقية من هذه الوظائف النفسية كل طابع عقلى حق ، وتصير حركات آلية ليس غير . بيد أن الملكة التى تجوز تسميتها مخيلة تظفر فى مقابل ذلك بسيطرة غير مقيدة : فهى تتحرر من سيادة العقل وتحرر - من ثم - من كل قاعدة تلتزم . صحيح أن مخيلة الحلم تستمد كل مواد بنائها من ذكريات اليقظة القريبة ، ولكنها تشيد منها تراكيب لا تحمل أدنى شبه بتراكيب الحياة المستيقظة ؛ فهى تكشف فى الحلم عن قدرة مبدعة ، لا مستحضرة فحسب . وخواصها هى ما يخلع على الحياة الحاملة سماتها ؛ فهى تؤثر من الأشياء المفرط والمغرق والمهول . غير أنها ، فى الوقت عينه ، إذ تتحرر من موانع الفكر بمقولاته تكتسب قدراً أعظم من اللدونة والخفة والتقلب ؛ فهى حاسة كأرهمف ما يكون الحس بدقائق الحلجات الرقيقة مثلها بعنيف الانفعالات ، ثم هى سريعة إلى تجسيد حياتنا الباطنة فى صور خارجية يلمسها البصر . فمخيلة الحلم مسلوبة القدرة على لغة التصورات المجردة ، وهى إذن مضطرة إلى أن تصوغ ما تريد قوله فى تصاوير ، وإنما لتستخدم هذا الأسلوب المصور استخداماً كاملاً قوياً ، فإنا هناك من تصورات مجردة تكسر شوكتها . لهذا كانت لغتها - مهما بلغ وضوحها - مسهية ، ثقيلة ، متعثرة . ثم ينقص وضوحها بنوع خاص صدوفها عن تمثيل الموضوع بصورته الخاصة به وإيثارها صورة غريبة عنه إذا كان فى هذه الصورة ما يعرب عن هذا المحمول الذى يهتمها تمثيله وحده دون سائر محمولات الموضوع . وذلك هو النشاد الرمزى للمخيلة . . . وأمر آخر له أهميته القصوى ؛ هو أن مخيلة الحلم لا تصور الموضوعات أبداً تصوراً مستوفياً بل مجملاً فقط ، حتى هذا الإجمال تأتية فى كثير من الحرية ؛ ولهذا جاءت صورها أشبه بتخطيطات مبتكرة .

غير أن مخيلة الحلم لا تقف عند مجرد تمثيل الموضوع ، بل تدفعها ضرورة باطنة إلى أن تدخل أنا الحالم في علاقة بهذا الموضوع إلى حد ينقص أو يزيد ، وبهذا تخلق حدثاً . مثال ذلك أن حلاماً صادراً عن منبه بصرى قد يصور قطعاً ذهبية ملقاة في الطريق : عندئذ سوف يلتقطها الحالم ويمضى فرحاً .

وأما المادة التي تتناولها مخيلة الحلم بنشاطها الفني هذا ، فأهم مصادرها ، على حسب شرزر ، المنبهات الجسمية العضوية التي تظل مهمة في خلال النهار (أنظر ص ٦٨ وما يليها فيما سبق) . وهكذا يكون ثمت تطابق تام فيما يتعلق بمصادر الحلم ومنبهاته بين هاتين النظريتين الكائنتين على طرفي نقيض في كل ما خلا ذلك : نظرية شرزر المغرقة في الخيال ونظرية فونت وغيره من الفيزيولوجيين ، المتزنة اتزاناً قد يكون فيه بعض الغلو . ولكنه بينما ترى نظرية الفيزيولوجيين أن الاستجابة السيكولوجية إلى المنبهات العضوية الباطنة تكمل إذا ما استيقظت أفكار تناسب هذه المنبهات على نحو من أنحاء المناسبة ، أفكار تثير غيرها من طريق التداعي ، وإلى هذا الحد تنهى سلسلة العمليات النفسية — ترى نظرية شرزر أن عمل المنبه العضوى ينحصر في تزويد النفس بالمادة التي تمكنها من تحقيق أهدافها التخيلية . فتكوين الحلم في رأى شرزر إنما يبدأ حيث يرى المؤلفون الآخرون أنه ينتهى .

ومن المؤكد أننا لانستطيع أن نرى فيما تصنعه مخيلة الحلم بالمنبهات الحسية شيئاً ذا قصد نافع ؛ فهي إنما تلعب بها لعباً عابثاً وتصور المصادر العضوية التي تبعث منها هذه المنبهات بضرب من الرمزية المشكّلة . ويرى شرزر — وفي هذا يفترق منه فولكلت وكثير غيره — أن مخيلة الحلم تملك طريقة بعينها تؤثرها في تصوير الكائن العضوى في مجوعه : تلك هى تصويره في صورة المنزل . إلا أنها لحسن الحظ لا تبدو تلتزم هذه الطريقة الواحدة في التصوير . ثم هى قد تشير على العكس إلى عضو مفرد من أعضاء الجسم بصف بأسره من المنازل : كأن تصور منبهاً معويّاً بشارع اصطففت المنازل طويلاً على جانبيه . ويتفق في مرة أخرى أن تنوب أجزاء متفرقة من المنزل عن أجزاء متفرقة من الجسم : مثال ذلك أن حلاماً ناجماً عن صداع قد يصور الرأس فيه بسقف منزل تغطيه عناكب أشبه بالصفادع تبعث على الغثيان .

وإذا تركنا رمزية المنزل جانباً ، فقد تستخدم مخيلة الحلم أى موضوع آخر يروقها في تصوير أجزاء الجسم الصادرة عنها المنبهات : « فيرمز إلى الرثتين وهما تتنفسان بالموقد المستعر

بما له من زئير كالريح ، ويرمز إلى القلب بالصناديق والسلال المحققة ، وإلى المثانة بالموضوعات المستديرة الشبيهة بالأكياس أو بالموضوعات المقورة على وجه أعم . فإن كان الحلم راجعاً إلى منبه جنسى رأى الحالم أنه يصادف في الطريق مبسم « كلارينت » أو غليون طباق أو قطعة من الفراء كذلك . وهنا تمثل « الكلارينت » أو غليون الطباق الشكل التقريبي لعضو الذكورة ، بينما يمثل الفراء شعر العانة . وأما الأحلام الجنسية عند الإناث ، فقد يرمز فيها إلى الفرجة الضيقة بين الفخذين حين يلتصقان بفناء ضيق أحاطت به المنازل ، بينما يرمز إلى الفرج بممر ناعم ، زلق ، شديد الضيق ، يجري عبر الفناء ، ترى الحاملة نفسها مضطرة إلى المسير فيه لكي تحمل ، مثلاً ، رسالة ما إلى رجل من الرجال . « فوللكت ، ص ٣٤ .) وإنه لأمر له أهميته الخاصة أن مخيلة الحلم قد ترفع النقاب عن وجهها - إن جاز هذا التعبير - في نهاية هذه الأحلام الناجمة عن منبه جسمي ، إذ تكشف صراحة عن العضو الذي يتعلق به الأمر أو عن وظيفته . وهكذا يقع عادة أن تنهى « أحلام الأسنان » بأن ينتزع الحالم سناً من فمه .

بيد أن مخيلة الحلم قد لاتوجه انتباهها إلى شكل العضو المنبّه فقط ، بل ترمز كذلك إلى المادة المحتواة في هذا العضو : مثال ذلك وحل الطريق في الأحلام الناجمة عن منبه معوى ، وزبد الماء في تلك الناجمة عن منبه بولي . أو قد يتناول التمثيل الرمزي المنبه من حيث هو كذلك ، أو نوع التهيح الذي يحدثه ، أو الموضوع الذي يصبو إليه ، أو قد يدخل أنا الحالم في علاقة منظورة بالرموز التي تصورها حالته النفسية : مثال ذلك أن يصارع الحالم صراع المستमित كلاباً مسعورة أو ثيراناً هائجة في حالة المنبهات الأئيمة ، أو ترى الحاملة نفسها ورجل عار يطاردها في حلم جنسى . فإذا تركنا جانباً كل هذه الثروة في وسائل التصوير الممكنة ، يبق أن النشاط الرمزي للمخيلة هو القوة المركزية في كل حلم . ولقد حاول فوللكت في صفحات كتابه أن يتعمق ماهية هذه المخيلة وأن يجد لها محلاً في مذهب فلسفي ، ولكن كتابه ، وإن سطر بأسلوب بديع قوى ، يظل صعب الفهم في الغاية على من لم يعده تعليمه المبكر لإدراك التصورات الفلسفية بروح من القبول .

ولا تقترن هذه المخيلة الرامزة التي يقول بها شرنر بأية وظيفة نافعة : إن النفس تلعب حاملة بما يعرض لها من المنبهات . ومن حق القارئ أن يستخلص أنه لعب أدنى إلى الأذى منه إلى النفع . ولكن من حق القارئ أيضاً أن يسألنا : وعلام إذن كان هذا

الاهتمام الطويل بنظرية شرزر ، وهي نظرية يبدو جلياً خلوها من كل سند غير إرادة صاحبها وخروجها على كل قواعد البحث ؟ ولعل من حقنا على سبيل الجواب أن نسجل ههنا احتجاجنا على هذا الترفع الذى تنطوى عليه إرادتنا أن ننبد نظرية شرزر دون سابق فحص . فهذه نظرية تستند إلى الواقع الذى أحدثته فى نفس رجل أحلامه ، وهو رجل أولها أعظم انتباهه وتدل الدلائل على أنه ذو موهبة تؤهله أحسن التأهيل للغوص فى دياجير النفس . ثم هو فوق ذلك يعالج موضوعاً ظل البشر آلاف السنين وهم يعدونه من غير شك لغزاً ، لكن لغزاً خطيراً فى ذاته ومتضمناته ، ولم يسد العلم المضبوط — باعترافه هو — سوى الشئ القليل فى سبيل إيضاحه ، فيما خلا محاولة تهدف إلى تجريده من كل مضمون أو مغزى ، على نقيض الاعتقاد الشعبي . وأخيراً فلعل من الأمانة أن نقول : إن الأمور تبدو كما لو كان من الصعب علينا بمكان أن نشرع فى تحليل الحلم دون أن تقع فى حبال الخيال . فهناك أيضاً خيال اسمه : الخلايا العقدية . وإن الفقرة التى نقلناها (ص ١٠٩) عن باحث متزن دقيق مثل بيتس ، تلك الفقرة التى تصف كيف يشرق فجر اليقظة على مجاميع الخلايا النائمة فى المخ ، لا تترك لمحاولات شرزر قصب السبق فى شطط الخيال وضعف الاحتمال . وآمل أن تكون لى القدرة على أن أبين أن وراء هذه المحاولات الأخيرة يكمن جانب من الحق ، وإن كان من المقطوع به أن هذا الجانب لم يدركه شرزر إلا على نحو غامض ، وأنه يفتقر إلى طابع العموم الذى لا تكون بغيره نظرية فى الحلم جديدة بهذا الاسم . وإلى أن يتحقق ذلك ، فالتعارض بين نظرية شرزر ونظرية الأطباء يرينا أى طرفين لا يزال الشك يؤرجح بينهما تعليقات الحلم إلى يومنا هذا .

ح

العلاقة بين الحلم والأمراض العقلية

عندما نتحدث عن علاقة الحلم بالاضطرابات العقلية ، فقد نعنى بذلك ثلاثة أشياء مختلفة : (١) العلاقات العلية الإكلينيكية ، مثلما يقع حين يمثل حلم من الأحلام حالة ذهانية أو حين يستهلها أو يتخلف عنها ، (٢) التغييرات التى تطرأ على الحياة الحاملة فى حالات المرض العقلى ، (٣) العلاقات الباطنة بين الحلم وحالات الذهان ؛ فبينهما من

أوجه التماثل ما يشير إلى قرابة جوهرية . ولقد كانت هذه العلاقات المتشعبة بين الظاهرتين موضوعاً يؤثره المؤلفون الأطباء بعنايتهم في الماضي ، وهم اليوم يؤثرونه من جديد — كما يتضح من قوائم المراجع التي جمعها في هذا الشأن شبيتا ورادشوك ومورى وتيسيه . وحديثاً جداً أعار سانه دي سانكتيس هذه المسألة انتباهه ^(١) . ولكن يكفيننا فيما نتوخاه أن نلمس هذه المسألة الهامة لمساً .

وأما فيما يتصل بالعلاقات الإكلينيكية والعلية بين الحلم والذهان ، فأورد الملاحظات الآتية على سبيل المثال : يرى هنبوم (على ما يقوله كراوس) أن التفجر الأول للجنون الهجاسى ينبعث في أحيان كثيرة من حلم هيلة مروع ، وحينئذ يكون ثمت ارتباط بين الفكرة المتسلطة والحلم . ويورد سانه دي سانكتيس ملاحظات مماثلة في صدد حالات من البارانويا ، معلناً أن الحلم في بعض هذه الحالات قد يكون هو « العلة الحقيقية المحتممة للجنون . » ^(٢) ويقول سانكتيس : إن الذهان قد ينبعث إلى الحياة دفعة واحدة بانبتاق الحلم الذى يخرج فيه التأويل الهجاسى إلى الضوء ، أو قد يتمخض رويداً رويداً خلال سلسلة من الأحلام تأتي بعد ذلك إلى أن يغلب الاعتقاد الهجاسى كل شك . واتفق في إحدى حالاته أن الحلم التأويل كانت تعقبه نوبات هستيرية خفيفة ثم صارت تعقبه حالة سوادية تصحبها الهيلة . ويروى فبريه (على ما يقول تيسيه) حلماً نجم عنه شلل هسترى . وفي هذه الأمثلة يساق الحلم على أنه علة الاضطراب العقلى ، ولكننا نصدّق الواقع أيضاً إذا قلنا : إن الاضطراب العقلى يظهر في الحياة الحاملة أول ما يظهر ، أو إن أول انبثاقه يكون من خلال الحلم . وفي أمثلة أخرى تنحصر الأعراض المرضية في نطاق الحياة الحاملة أو يقتصر الذهان على هذه الحياة . وهكذا يجذب توماير الانتباه إلى أحلام هيلة يرى أن الواجب أن نعدها أعدالا لنوبات صرعية . ولقد وصف أليسون (يذكره رادشوك) حالة جنون ليلي ^(٣) كان المريض يبدو فيها مكتمل الصحة كل الاكتمال نهاراً ، ثم لا تأتى ليلة إلا استهدف للهلاوس ولنوبات من الهياج ... إلخ . ويورد دي سانكتيس ملاحظات شبيهة بهذه (حلم يعدل البارانويا عند رجل مدمن على الكحول ،

(١) ومن الكتاب الذين اهتموا بعد ذلك بهذه العلاقات : فبريه وإيدلر ولاسيج وبيشون وريجي وشفها

وجيسلر وكازوفسكى وپاكانتوفى .

[“la vraie cause déterminante de la folie”]

(٢)

[nocturnal insanity]

(٣)

وكان الحلم يصور له أصواتاً تهم زوجه بالحيانة) وكذلك يفعل تيسيه . ويسوق المؤلف الأخير ملاحظات حديثة متعددة عن أفعال مرضية (كالسلوك المقام على مقدمات هجاسية أو اندفاعات قهرية) تفرعت عن الحلم . ويروى جيسلون حالة انقلب فيها النوم إلى جنون يأتي على فترات .

فلا شك في أن الأطباء إلى جانب بحثهم في نفسية الحلم ، سوف يوجهون يوماً اهتمامهم إلى مرضيته .

وكثيراً ما يتاح لنا أن نلاحظ بوضوح خاص في حالات النقاهاة من المرض العقلي أن الأحلام لا تزال تخضع لتأثير الذهان ، بينما تعمل الوظائف على نحو سوى في خلال النهار . ويقول كراوس : إن جر يجرى هو أول من جذب الانتباه إلى هذه الحقيقة . ويروى ماكاريو (على حسب تيسيه) أن مريضاً بالهوس كان بعد أسبوع كامل من شفائه لا يزال يستهدف في أحلامه لتلك الأفكار المناسبة والاندفاعات الجارحة التي عرف بها في مرضه .

وأما التغيرات التي تطرأ على الحياة الحاملة في حالات الذهان المزمن فلم تلق من البحث إلا حظاً ضئيلاً كل الضالة حتى اليوم . بيد أن الانتباه قد اتجه منذ زمن طويل إلى القرابة الكامنة بين الحلم والاضطراب العقلي ، وهي قرابة تم عليها سعة مدى الاتفاق بين مظاهرها . ويقول موري : إن كابانيس كان أول من وجه النظر إليها ، وتلاه ليلو ، ثم ج . مورو ، ثم الفيلسوف مين دي بيران بنوع خاص . ولا شك في أن المقارنة بين الظاهرتين أقدم بعد عهدا . فرادشتوك يستهل الفصل الذي يعالج فيه هذا الموضوع بإيراد عدة من النصوص مماثل مؤلفوها بين الحلم والجنون ، فترى كانت يقول في موضع ما : « المجنون حالم يقظان » . ويعلن كراوس أن « الجنون حلم يحلمه المرء وهو مستيقظ الحواس » . وأما شوبنهاور فيسمى الحلم جنوناً قصيراً والجنون حلماً طويلاً . وأما هاجن فيصف الهذيان بقوله : إنه حياة حاملة أدخلها المرض لا النوم . ويقول فونت : « والحقيقة هي أننا أنفسنا قد نمرق أحلامنا بما يكاد يعدل جميع المظاهر التي نصادفها في مستشفيات المجانين . »

ويعدد شبيتا مواضع الاتفاق التي تقوم على أساسها هذه المقارنة على نحو شبيه كل الشبه بما يسبق إليه موري : « (١) يعطل الشعور بالذات أو على الأقل يؤخر ، وينجم عن ذلك جهل الشخص بحالته ، ومن ثم العجز عن الدهش وفقدان الشعور الخلقى .

(٢) يتغير إدراك الأعضاء الحسية، فينقص في الحلم ولكنه بوجه عام يزداد زيادة عظمى في الجنون، (٣) يتم الترابط بين الأفكار وفقاً لقوانين التداخي والاستحضار وحدها، أى أن الأفكار تجتمع في سلسلات على نمط آلى محض، وينجم عن ذلك فقدان التناسب في العلاقة بين الأفكار (المبالغات والأوهام)، ويؤدي كل أولئك إلى (٤) تحول الشخصية أو انقلابها في بعض الحالات، وأحياناً يقع ذلك في سمات الطبع (الانحرافات). .

ويضيف رادشوك إلى ما سبق سمات قليلة أخرى تتصل بمائل الظاهرتين من حيث المادة: « فغالبية الهلاوس والأوهام تقع في مجال حاستي البصر والسمع ثم الحساسة الإجمالية بالجسم. فحاستا الشم والذوق لا تشاركان هنا - شأنهما في الأحلام - إلا بأقل العناصر. وفي الحمى كما في الحلم تنبث ذكريات من الماضي السحيق، فالنائم والمريض يذكر كلاهما أشياء تبدو نسبياً منسياً عند المستيقظ والمعافي. » بيد أننا لا نقدر التماثل بين الحلم والذهان تمام التقدير إلا إذا رأيناه يمتد، مثل شبه عائلي، إلى دقائق الحركات المعبرة وإلى خصائص تعابير الوجه.

« إن من بوحته آلام الجسد والروح يظفر في الحلم بما أباه الواقع عليه، بالصحة والسعادة. وكذلك المرض العقلي؛ فهو يحفل بصور براءة من السعادة والعظم والجاه والثراء، فأكثر ما يشتمل عليه الهذيان امتلاك مزعوم للخيرات أو تحقيق متخيل لرغبات كان امتناعها أو دمارها هو العلة التي أدت بالفعل إلى الجنون، فتحظى من فقدت ابنها الحبيب بمتع الأمومة في هذيانها، ويعتقد من فقد ماله أن ثروته قد تجاوزت كل حد، وترى الفتاة المخدوعة نفسها موضع الحب والحنان. »

(هذه الفقرة المقتبسة من رادشوك تلخص ملاحظة ثابتة أتاها جريزنجير (١٨٦١)، (١٠٦) وبين فيها بجلاء تام أن الخاصة المشتركة بين الأفكار في كلا الحلم والذهان هي كونها تحقق رغبات. ولقد علمتني مباحثي أيضاً أن ذلك في الحقيقة هو المفتاح إلى نظرية سيكولوجية في الحلم والذهان على السواء.)

« والارتباط المغرب بين الأفكار مع ضعف الحكم هما الخاصتان الرئيستان للحلم والذهان. » ففي كليهما نرى الشخص يغالى في تقدير قدراته العقلية مغالاة تلوح جوفاء للعين المتزنة. ثم إن سرعة جريان الأفكار في الحلم يوازيها انسياب الأفكار في الذهان؛ ففي كليهما يغيب كل معيار زمني. وانقسام الشخصية في الحلم - مثلما يقع حين تتوزع

معرفة الحلم نفسه بين شخصين يصحح أحدهما، وهو الغريب ، خطأ أنا الحلم الخاص - يطابق انقسام الشخصية الذي نعرفه في البارانويا الهلوسية كل مطابقة ، ثم إن الحلم أيضاً يسمع أفكاره هو تنطق بها أصوات غريبة . وحتى الأفكار الهجاسية : فهى تجد نظيرها في الحلم المرضى الذى يراود صاحبه على نمط لا يتغير (الحلم القهرى) (١) . ولا يندر أن يقول المرضى بعد شفائهم من هذاء مروا به : إن فترة مرضهم جميعاً تلوح لهم أشبه بحلم لم يكن يخلو من المسرة كل الخلو، بل إنهم ليحدثوننا أحياناً أنهم حتى في خلال مرضهم كانوا بين الحين والحين يساورهم الشعور بأنهم إنما وقعوا في حبال حلم من الأحلام ، مثلما يحدث كثيراً في أحلام الليل .

فلا عجب بعد كل أولئك أن يلخص رادشوك رأيه ورأى الكثيرين معه في قوله : « إن الجنون - هذه الظاهرة المرضية غير السوية - هو اشتداد حالة سوية منتظمة الوقوع ، هى حالة الحلم . » (ص ٢٢٨) .

ولقد حاول كراوس أن يقيم بين الحلم والجنون علاقة قد تكون أوثق رباطاً من تلك التى يمكن أن تخرج من هذا التماثل بين مظاهرها الخارجية، مؤسساً هذه العلاقة على العلل أنفسها (أو ، بعبارة أصح ، على مصادر التهييج) . فالعنصر المشترك يكمن في رأيه - كما رأينا [ص ٧٤] - في الإحساسات المحتمة عضوياً الإحساسات الناشئة عن مصادر جسمية ، أى في الحساسية الإجمالية بالجسم ، المبنية على مشاركة أعضاء الجسم جميعاً (أنظر رأى پنس في كتاب مورى ، ١٨٧٨ ، ٥٢) .

هذا الاتفاق غير المتنازع فيه والممتد إلى خواص التفاصيل بين الحلم والاضطراب العقلى يمكن أن نعده سنداً من أقوى سندات النظرية الطبية في الحلم ، وهى النظرية التى ترى في الحلم عملية مزعجة لا طائل منها ومظهراً يعرب عن نشاط نفسى منقوص . ومع هذا فليس لأحد أن يطمع في الآونة الحاضرة في الوصول إلى تعليل أخير للحلم من طريق النظر في اضطرابات النفس ؛ لأن معرفتنا بهذه الاضطرابات لا تزال غير كافية - كما يعلمه الجميع . ولكن من الراجح على العكس كل الرجحان أن تغييراً في موقفنا تجاه الأحلام قد يكون له أثره في نظرتنا إلى الميكانيكية الباطنة للأمراض النفسية ، ومن ثم جاز لنا أن نقول : إننا نعمل على تعليل الذهان حين نتكلف مشقة الكشف عن سر الحلم .

ملحق ، ١٩٠٩ :

إن وقوفى عن أتابع الحديث فيشمل المؤلفات التي ظهرت تعالج مشكلات الحلم في الحقبة الممتدة بين أول ظهور هذا الكتاب وطبعته الثانية ، أمر يستوجب تبريراً . وقد لا يبدو المبرر مقنعاً للقارىء ، ولكنه كان على أية حال ذا أثر حاسم بالنسبة إلى . فالدوافع التي حدثني إلى أن أتحدث أى حديث عن نهج الكتاب الأسبقين في معالجة مشكلات الحلم ، قد استفدها الفراغ من هذا الفصل الذى قدمت به . وما كان المضى في هذا العمل إلا ليكلفنى مشقة بالغة على غير كبير إفادة أو نفع . ذلك أن هذه الحقبة من السنوات التسع لم تأت - سواء في المادة أو في الآراء - بقيم أو جديد يكون فيه ما ينير الموضوع ، وظلت معظم المؤلفات التي ظهرت في هذه الأثناء لا تعبر كتابي ذكراً ولا نظراً . وكان أقل المنبئين إليه بالطبع أولئك المسمون « ببحثة الحلم » ، فضربوا بذلك مثلاً ساطعاً على هذا الغزوف عن تعلم كل جديد الذى هو سمة تميز العلماء . ولقد قال أنا تول فرانس بسخريته المعهودة : « إن العلماء لا يحبون الاستطلاع . » ^(١) ولو أن العلم كان يعرف شيئاً اسمه حق القصاص ، لكان من حقي يقيناً أن أغفل من جانبي كل ما نشر منذ أن نشر هذا الكتاب . فالملاحظات القليلة التي ظهرت في الصحف العلمية عنه كانت تم عن تجرد من الفهم أو عن فهم مخطيء لا أملك لنقادی معهما إلا جواباً واحداً : هو دعوتهم إلى أن يقرأوا هذا الكتاب من جديد . لا ، بل ربما كان الأنسب أن تكون الدعوة إلى قراءته وحسب .

وأما مؤلفات الأطباء وغيرهم ، ممن قرروا أن يتبعوا المنهج التحليلي النفسى في العلاج ، فتشتمل على عدد وافر من الأحلام ، نشرت وحلت وفقاً لتعاليمى . ولقد أوردت نتائج هذه المؤلفات في سياق حديثي بمقدار ما تذهب هذه النتائج إلى أبعد من مجرد تأييد آرائى . غير أننى أضفت في نهاية المجلد قائمة بالمراجع حوت أهم المؤلفات التي ظهرت منذ أن نشر هذا الكتاب للمرة الأولى . وأما الكتاب المسهب الذى وضعه سانه دى سانكتيس عن الأحلام والذى ظهرت له ترجمة ألمانية عقب صدوره ، فقد كان تاريخ ظهوره يوافق تاريخ كتابي بحيث استحال على أن أعقب على كتاب المؤلف الإيطالى كما استحال عليه أن يعقب على كتابي . بيد أننى لم أملك إلا أن أرى آسفاً أن هذا الكتاب ، على ما تكلف فيه صاحبه من

الجهد ، فقير في أفكاره كل الفقر — فقير حتى أن القارئ لا يشعر منه ولو مرة بوجود المشكلات التي عاجلتها .

وليس ثمت ما يذكر سوى كتابين اثنين ، يقتربان من علاجي لمشكلات الحلم . فقد حاول فيلسوف شاب ، هو ه . سقوبودا ، أن يمد إلى الأحداث النفسية فكرة الدورة البيولوجية التي اكتشفها فيلهلم فليس (دورة طولها ٢٣ يوماً ودورة طولها ٢٨ يوماً) ، فعمل في كتاب يتسم بسعة كبيرة في الخيال (١٩٠٤) على أن يستخدم هذا المفتاح في حل لغز الحلم ، بين غيره من المشكلات . ولو صححت آراؤه لنفقت أهمية الأحلام سريعاً ؛ فهو يزعم أن المادة التي يتألف منها محتوى الحلم ينبغي تحليلها باجتماع جميع الذكريات التي تختتم لإحدى هذه الدورات البيولوجية ، سواء أكان ذلك للمرة الأولى أم لأى مرة تشاء . ولقد دعنتى رسالة شخصية من المؤلف إلى أن أقدر أنه نفسه لم يعد يأخذ نظريته هذه مأخذ الجدل ، ولكنى قد أخطأت التقدير ، فيما يبدو ، وسوف أورد فيما بعد [ص ١٨٩] بضع ملاحظات أنيتها للتثبت من فكرة سقوبودا ، دون أن أخرج منها بنتيجة مقنعة . بيد أنى لم أكن إلا أعظم سروراً حين التقيت في مجال لم أكن أتوقع فيه مثل هذا الالتقاء برأى يطابق لب نظرتى تمام المطابقة . فإذا رجعنا إلى التواريخ ، تبين أن من المحال أن يكون صاحب هذا الرأى قد تأثر بكتابى . وعلى ذلك أرى لزاماً على أن أحجى فيه المثال الوحيد الذى أستطيع اكتشافه لمؤلف يتفق معى في جوهر نظرتى . وأما الكتاب الذى حوى الفقرة التى أعنيها في موضوع الحلم ^(١) ، فقد ظهر في طبعته الثانية عام ١٩٠٠ بعنوان « خيالات واقعى » ، كتبه لينكويس ^(٢) .

ملحق ١٩١٤ :

كتبت صفحة التبرير السابقة عام ١٩٠٩ . ولقد تغيرت الأوضاع يقيناً منذ ذلك الحين ؛ فما عاد العمل الذى قمت به في « تفسير الأحلام » يغفل في أدب الموضوع . بيد أن الموقف الجديد إنما يجعل متابعة العرض السابق ضرباً من المحال . فقد أثار « تفسير الأحلام » طائفة كاملة من الآراء والمشكلات الجديدة تنوعت فيها طرق المناقشات أكبر التنوع . ولست أستطيع أن أتحدث عن هذه الكتابات قبل أن أفصل الكلام في آرائى نفسها التى إليها استند هؤلاء المؤلفون . وعلى ذلك فكل ما لاح ذا قيمة عرضت له في موضعه المناسب من مقالى الذى يتلو الآن .

(١) [وهي فقرة يوردها فرويد كاملة في صفحة ٣٢٠ ، في الهامش .]

(٢) أنظر مقال المعنون : " يوسف پوپر - لينكويس ونظرية الحلم " (١٩٢٣ و) .